دراسة في حماسة أبي تمام

تأليف

علي النجدي ناصيف

أستاذ بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٩٥٥

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة

شارع حوده المقاول ٣ عابدين

دراسة

في حماسة أبي تمام

تأليف

علي النجدي ناصيف

أستاذ بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٩٥٥

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي

مطبعة الرسالة

شارع حموده الفارابي ٣ عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على الأنبياء والمرسلين ، وعلى محمد النبي الكريم والرسول الأمين ، وعلى آله وصحبه إلى يوم يبعثون .

أما بعد فقد قيض لي أن أدرس نصوصاً من حماسة أبي تمام مع طلبة السنة الرابعة بدار العلوم . ولدراسة النصوص الأدبية في دار العلوم طريقتها المتخصصة ، وقصدها المرسوم : أن تعرض بالبحث والتحقيق لكل ما يتصل بالنص من علوم اللغة والأدب ، وأن تؤتيه حقه من التحليل والموازنة والنقد .

فهي دراسة مستوعبة جامعة ، تقول عن النص كل ما عسى أن يقال عنه ، وتمزج فيه القديم بالحديث على الألفة والمودة وحسن الملاءمة ، فيكون للطالب من ذلك ثقافة موفورة ، تفقهه في علوم اللغة والأدب ، وتروضه على التذوق والنقد ، وتؤلف بينه وبين القديم ، فيقرؤه ويفيد منه حفياً به ، وراغباً فيه ، كدأبه حين يقرأ الحديث .

وقد بدا لي أن أقدم بعض ما درست من هذه النصوص كتاباً منشوراً يقرؤه الناس ، فكان لا بد أن أرجع إليها فأنفي عنها الدراسات التي لا تعني غير المتخصصين ، فما أقدم إليهم الكتاب وحدهم ، ولكن إلى كل قارىء أديب .

وها هو ذا يقوم على مقدمة ، وسبع حماسيات . فأما المقدمة فتؤرخ الاختيار من الشعر ، وتحدث عن طليعة كتبه ، وتدرس كتاب الحماسة لأبى تمام من نواحيه المختلفة ، وتعرض مآخذها ومآخذ القدماء عليه ، وتبين مبلغ الثقة به ، ومدى الإفادة منه فى اللغة والأدب خاصة وفى الثقافة الإسلامية عامة .

وأما الحماسيات فتتوالى بعد المقدمة تباعاً ، ولكل وجهها الخاص فى طابع الدراسة ومقتضياتها المتميزة فى منحى التناول والعرض ، وإن كانت لتتشارك جميعاً فى الغاية والاتجاه العام .

والرغبة إلى الله جل ذكره أن يهدينى سواء السبيل ، وأن يتولانى فيما قصدت إليه بالعون والتوفيق .

القاهرة { ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٧٤ / ١١ من نوفمبر سنة ١٩٥٤ }

على النجدى ناصف

مقدمة

جاهد الإسلام حتى صنع من العرب والعجم أمة واحدة ، تجمعها رابطة العقيدة ورابطة الوسيلة والغاية ، فامتزج العنصران ، وامتزجت معهما اللغتان : العربية ، والأعجمية .

فأما ما امتزاج العنصرين فقد أتاح لكل أن يأخذ من صاحبه ويعطيه ، يتأثر به ويؤثر فيه ؛ فإذا أمة ليست عربية خالصة ولا أعجمية خالصة ، ولكنها عربية وأعجمية معاً . وهذا خير لا شك فيه ولا خلاف عليه .

وأما امتزاج العربية والأعجمية فقد أشاع في العربية اللحن ، وجلب عليها الفساد ؛ حتى خيف أن تزول خصائصها وتفنى شخصيتها على مر الأيام ، وهي لغة القرآن والحديث .

لذلك هب المسلمون هبة رجل واحد يذودون عنها ، ويمكنون لها ، بما بذلوا من جهود كريمة ، وما عملوا من أعمال جليلة ، إبقاء عليها ، وعصبية لها ، وإعجاباً بها ، لأنها لغتهم ولغة دينهم في وقت معاً . ولذا كانت العناية بها شديدة والافتنان في صيانها كبيراً .

والذي يعنينا هنا أن نشير مجرد إشارة إلى نصيب الرواة من العمل في هذا المجال :

لقد رأوا العربية تنساب من الجزيرة إلى بلاد الأعاجم على ما فطرها الله ، نقية خالصة فلا تلبث أن تتلقفها العجمة ، فتغير منها وتعيث فيها على ألسنة الأعاجم وألسنة الأعقاب الناشئين من العرب ، فإذا هي مشوبة مدخولة لا يؤمن التعويل عليها في احتجاج ولا استنباط ثم فنفروا إلى البادية خفافاً أجاداً ، يجمعون الشعر ،

ويقتصون أثره أنى يكون . والشعر ديوان العرب ، وأشيع ما أثر عنهم من كلام . ولم يكن للرواة فى جمعه خط معلوم ولا نهج مرسوم ، إلا الجمع والاستقصاء ما كان إليهما سبيل . همهم ألا يندعنهم شيء من شعر القبيلة ، أو ديوان الشاعر التصنيف والتبويب فلم يكونا منهم على بال .

ذكر صاحب الفهرست أن الشيبانى جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وأن السكرى جمع أشعار ذهل وشيبان وكنانة وغيرها من القبائل ، كما جمع دواوين امرىء القيس والأخطل والفرزدق وغيرهم من الشعراء(١) .

ونظر الناس فإذا لهم من الشعر تراث عظيم ، لكنه مشوش متفاوت يعوزه التمييز والتصنيف . وما بالشداة الناشئين ولا الطلاب غير المتخصصين حاجة إليه كله ، وإذاً لا بد من إجالة النظر فيه ، والانتخاب منه ، فكانت كتب الاختيار من الشعر ، دعت إليها دواعى الترتيب والتيسير .

ولم يكن اختيار الشعر من ابتكار الإسلاميين ، ولكنه قديم سبق شعراء الجاهلية إلى نحو منه ، إذ كانوا يحتكمون فى الشعر إلى قضاة منهم فيفاضلون بينهم ويقضون لبعض على بعض(٢) . وكان من قضى له منهم ينبه اسمه ويسير شعره هنا وهناك . وبقيت من ذلك بقية فى الإسلام ، تراها احتكاماً فى الشعر ، أو استئذاناً فى إعلانه ، أو استباقاً فى مطارحته وإنشاده(٣) .

وإذا صدقت أنباء المعلقات أو المذهبات(٤) — ولا نرى ما يمنع من صدقها —

(١) الفهرست لابن النديم : ١٠١ ، ١١٧ ، ٢٢٤ — ٢٢٦

(٢) راجع الموشح للمرزبانى : ٦٠

(٣) الأمالى : ٢ : ١٤٢ — ١٤٤ ، والأغانى : ٥ : ٧٦

(٤) راجع العقد الفريد : ٣ : ٣٧٩ ، والعمدة : ١ : ٦١ ، ومقدمة ابن خلدون : ٦٦٢ ، وخزانة الأدب : ١ : ١٢٣ ، ١٢٤ ، والأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٢٤ — ١٢٧ .

كانت أقدم ما نعلم من المختارات الشعرية المدونة على الإطلاق .

والذى جاءنا من كتب المختارات الشعرية نوعان : نوع يدور الاختيار فيه على القصيدة ، فإذا هو أولا وآخراً أشتات مختلطة من جياد القصائد ، تلتقى كل طائفة منها فى كتاب ، ولكن على غير وحدة تقصد ولا نسق يراد ، أى أنه اختيار مطلق وعمل لا تصنيف فيه . ونوع آخر يدور الاختيار فيه على المقطوعة ، فإذا هو أولا وآخراً أصناف من جياد المقطوعات ، تلتقى كل طائفة منها فى كتاب أيضاً ، ولكنها مع ذلك موزعة على فنون الشعر ، فصنيف فى الحماسة ، وصنف فى الرثاء ، وثالث فى الهجاء وهلم جرا . أى أنه اختيار مقيد ، وعمل متعدد ، هو الجمع والتصنيف على حسب فنون الشعر .

والنوع الأول أسبق وجوداً من النوع الآخر ؛ لأنه أدنى إلى الفطرة وأشبه بالبداءة . وأقدم ما نعرف من كتبه بل من كتب الاختيار عامة كتاب المفضليات لأبى العباس المفضل الضبى المتوفى سنة ١٨٩ .

ويذكرون فى خبره أن المنصور هو صاحب فكرته ، وهو الذى أشار على المفضل الضبى بعمله ، إذ كان المفضل مؤدب ولده المهدى ، فمر بهما المنصور يوماً فسمع المهدى ينشد قصيدة المسيَّب بن عَلَس (١) التى مطلعها:

أرحلت من سلمى بغير متاع   قبل العُطاس ورعتها بوداع (٢)

فوقف يسمع من حيث لا يريانه ولا يشعران به ، حتى إذا فرغ الفتى من إنشاده مضى الخليفة إلى مجلس له ، فدعاهما إليه ، وقص الخبر على المفضل ، وأعرب عن استحسانه للقصيدة وإعجابه بها ثم قال له : لو عمدت إلى أشعار الشعراء

(١) من أشعر المقلين من شعراء الجاهلية . وهذه القصيدة فى مدح القعقاع بن معبد بن زرارة من سادات تميم

(٢) العطاس : الصبح .

المقلين ، واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال لكان ذلك صواباً فأنفذ المفضل إشارته فكانت المفضليات[1] .

وأقدم ما نعرف من كتب النوع الآخر كتاب الحماسة لأبي تمام المتوفى سنة ٢٣١ ، ألفه في طريق عودته إلى العراق ، ويقصون القصة من أولها فيقولون: كان أبو تمام عند عبد الله بن طاهر في خراسان ، ثم صدر عنه يريد العراق ، فلما كان بهمذان استضافه آل سلمة ، فنزل فيهم على الحفاوة والتكرمة ، لكنه فيما يبدو كان قلقاً معجلا ، لا يطمئن إلى المقام ولا يرى رأى أصحابه فيه . ثم يشاء الله أن يكون ما يشتهون لا ما يشتهي أبو تمام ، وأن يكون للأدب من وراء ذلك خير كبير .

فقد أصبحوا يوما فإذا ثلج همذان يسقط غزيراً متكاثفاً ، يغشى الأرض ويقطع الطريق ، فانقبض لذلك أبو تمام وسر له آل سلمة ، ولم يجدوا أفضل من خزانة كتبهم يخرجونها إليه ، لعله يطيب بها وينشرح صدره لها ، وقالوا له كالشامتين به أو المغتنمين له : وطن نفسك على المقام ، فالثلج هنا متثاقل بطيء ، فما وسعه إلا أن يتقبل الواقع ويروض نفسه عليه ، وانصرف إلى الكتب يقرأ ويصنف ، فكانت الحماسة ، وكان معها أربعة كتب غيرها في الشعر أيضاً ، منها كتاب الاختيار من أشعار القبائل .

قالوا : ولم يزل كتاب الحماسة في خزانة آل سلمة يضنون به ، ولا يكادون يخرجونه لأحد ، حتى تغيرت حالهم ، وورد همذان رجل من أهل دينور[2] يعرف بأبي العواذل ، فظفر به ، وحمله إلى أصبهان ، فأقبل أدباؤها عليه ، وآثروه على

---

(١) راجع ذيل الأمالى : ١٣١ — ١٣٣ ، ونزهة الألبا : ٦٧ .

(٢) مدينة من أعمال الجبل بمقدار ثلثي همذان ، وعلى نيف وعشرين فرسخا منها ، كثيرة الزروع والثمار .

غيره من الكتب المصنفة فى معناه حتى شهر فيهم وفيمن يليهم جيلا بعد جيل[١]

وكتاب الحماسة فى بابه ككتاب المفضليات فى بابه ، كلاهما أول وكلاهما إمام نظر الناس إليه واتبعوا سبيله ، فمن الكتب التى ألفت على مثال المفضليات كتاب الأصمعيات لأبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، وكتاب جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى . ومن الكتب التى ألفت على مثال الحماسة : كتاب حماسة البحترى ، وكتاب حماسة الخالديين ، وكتاب حماسة ابن الشجرى .

ويذهب الأستاذ الدكتور طه حسين إلى أن ما يقوله الرواة عن سبب تأليف أبى تمام لحماسته غير صحيح ، وذلك إذ يقول : « . . . ولكن هذا غير ممكن وغير معقول ، فقد كانت إقامته رهن زوال الثلج ، وهذا لا يتجاوز الأشهر القليلة ، ومن المستحيل أن يصدق أنه اختار هذه الكتب فى شهرين أو ثلاثة[٢] » .

فالأستاذ الدكتور لا يستبعد صدق الخبر أو يشك فيه ، ولكنه ينفيه قطعا ، ويراه غير ممكن وغير معقول ، ورأيى أن أوجه الإمكان أكثر من أن تتعذر عليه ، وأن مجال العقل أوسع من أن يضيق به .

فممكن معقول أن أبا تمام لم يكن ينوى أول الأمر أن يلبث فى همذان إلا ريثما يذوب الثلج ويتيسر السفر . ثم عدل عن نيته هذه أو غيرها منها حين أقبل على العمل ، فاستبان قيمته وأدرك جدوى المضى فيه .

وممكن معقول أن يكون الانقباض الذى أحس به ، وبدت بوادره عليه حين علم أن سيطول مقامه فى همذان — إنما كان مرجعه إلى المفاجأة نفسها ومايصحبها

---

(١) شرح التبريزى للحماسة : ١ : ٤ ، وهبة الأيام : ١٣٨ .

(٢) من حديث الشعر والنثر : ١٠٠ .

عادة من شعور عارض ورأى فطير . وربما كان مرجعه إلى هذه الضرورة الملجئة التي ردته قسراً عما يريد إلى مالا يريد ، فلما هدأت نفسه وتهيأت له فرصة التفكير في الأمر تبدل فيه إحساساً بإحساس ورأياً برأى .

وممكن معقول ألا يكون لأبي تمام عهد بكتب آل سلمة من قبل ، فرأى العكوف عليها والإفادة منها غنيمة بالغة ، ونهزة نادرة لا يجمل بمثله أن يتهاون فيها أو يؤثر حاجة عليها .

ثم إن أبا تمام كان فيما يبدو من شعره يبغض الشتاء ويحذر البرد ، كأنه كان يشكو مرضاً يهتاج به أو يزداد عليه . فقد نظم قصيدة وهو بخراسان ذم فيها الشتاء وشكا البرد ، ووصف وقعه على الأجسام وبأسه في الكلى ، مطلعها :

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل　　　ولا قشيب فيستكسى ولا سَمَل

ومنها : ماللشتاء وما للصيف من مثل　　　يرضى به السمع إلا الجود والبُخل

ومنها : إذا خراسان عن صِنَّبرها كشرت

كانت قتاداً لنا أنيابه العُصُل(١)

يمسى ويضحى مقيماً في مباءته　　　وبأسه في كلى الأقوام مرتحل(٢)

وله قصيدة أخرى يمدح فيها الفرو ، ويصف بلاءه في الدفء ورد عادية البرد ، منها :

دنا سفر والدار تنأى وتصقب　　　وينسى سراه من يعاف ويصحب

وأيامنـــــا خُزر العيون عوابس　　　إذا لم يخضها الحازم المتلبب

---

(١) الصنبر : شدة البرد . العصل : المعوجة في صلابة .

(٢) هبة الأيام : ١٣٤ ، ١٣٥ .

ولا بد من فرو إذا اجتابه امرؤ غدا وهو سام في الصنابر أغلب[١]
أمين القوى لم تحصص الحرب رأسه ولم ينض عمراً وهو أشمط أشيب
يسرك جسماً وهو غير مغمر ويعتد للأيام حين يجرب
تظل البلاد ترتمي بضريبها وتشمل من أقطارها وهو يجنب
إذا البدن المقرور ألبسه غدا له راشح من تحته يتصبب
إذا عد ذنباً ثقله منكب امرىء يقول الحشا : إحسانه حين يذنب[٢]

فإذا صح أن أبا تمام كان من الشتاء على ما ذكرنا لم تكن إقامته في همذان كما يقول الدكتور طه — رهنا بزوال الثلج عنها إذا أدركه وهو فيها ، لأن زوال الثلج عن بلد لا يعني زوال البرد عنه وحلول الدفء فيه . وإذاً لابد من فترة أخرى يصير فيها من الخوف إلى الأمن ، ومن القلق إلى الطمأنينة حتى يرحل حين يرحل معتقداً أن لن يفجاه البرد في بعض الطريق بما عسى أن تشق عليه مقاومته والاحتماء منه .

ولننظر مع ذلك في الأعمال التي تتطلبها صنعة كتاب مثل حماسة أبي تمام ما هي ؟ وما مبلغ ما تكلف من الجهد والوقت ؟ إنها القراءة والاختيار ثم التصنيف والتدوين ، أربعة أعمال في العدد والحساب ؛ ولكنها عملان اثنان أو توشك أن تكونهما في الجهد والوقت ؛ لأن الاختيار والتصنيف يلابسان القراءة ويمكن أن يكونا في أثنائها .

ورجل له مثل ما لأبي تمام من ألمعية خاطفة وذوق مرهف لا تبطىء به القراءة والاختيار ، ولا يكلفانه من الوقت والجهد مثل ما يكلفان سواه . وليس بعيداً أن

---

(١) اجتابه : لبسه .

(٢) هبة الأيام : ١٦٧ : ١٦٨ .

يكون أصحابه من آل سلمة فى حرصهم عليه وبرهم به ، وملاطفتهم له — قد رفقوا به ، وقدروا حاله فأمدوه ببعض الأعوان ، يكل إليهم من الأمر ما يريد . وكان الفصل حين ذاك فصل الشتاء حيث يطيب العمل ، ولا يثقل الانقطاع له والعكوف عليه .

ولسنا نعرف السنة التى صنف فيها أبو تمام كتاب الحماسة ، على أننا نستطيع أن نقرب الفترة التى يظن أنه صنفه فيها مجرد تقريب . ومعولنا فى ذلك على ما يروى الرواة عن رحلاته فى طلب الرزق ؛ فقد ذكروا أنه بعد ما خرج من مصر قصد إلى العراق فمدح الخليفة المعتصم ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ . ثم أخذ أبو تمام يرحل إلى العمال هنا وهناك يمدحهم وينال جوائزهم ، إلى أن ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل فعمل به أقل من عامين ، ثم توفى نحو سنة ٢٣١[١] .

ونظن أن أقل ما تقدر به الفترة التى بين خروج الشاعر من مصر ونزوله على آل سلمة فى همذان هو عامان اثنان ، وإذاً يمكن أن يقال إن أبا تمام صنف حماسته بعد سنة ٢٢٠ بزمن ربما لا يكون بعيداً .

وأبو تمام هو الذى سماه الحماسة[٢] ، فقد جاء فى المؤتلف والمختلف : ومنهم المثلم بن عمرو التنوخى ، أنشد له الطائى فى اختياره الذى سماه الحماسة .

ولا أعرف على التحقيق سبب تسميته بها ، فربما كان السبب أن الحماسة أكبر أبواب الكتاب وأوفرها نصيبا من الاختيار ، وهى بهذا جزء منه عظيم ، له بين سائر الأجزاء منزلة وشأن . وإنزال جزء الشىء لمزية فيه منزلة كله وإجراؤه

---

(١) وفيات الأعيان : ١ : ١٥٢ .

(٢) المؤتلف والمختلف : ١٨ ، وتقديم شرح المرزوقى للحماسة : ١ : ٧ .

فى الحكم مجراه عمل معروف وسُنّة متبعة ، يدعو إليها إنصاف المزية والإقرار بحق صاحبها فى سبق النظائر والأشباه ، وهو فى البيان العربى شائع متداول ، عرفته العرب بالفطرة ، وهدى إليه العلماء من بعد بالدراسة والبحث ، وأدخلوه فى باب المجاز . ولا ندرى أكان فى نشأته ظاهرة كمال أم ظاهرة نقص ، ودليل وفرة فى اللغة أم دليل قلة ؟ وهل سرى من البيان إلى التسمية أو من التسمية إلى البيان ؟ ولكنه على الحالين رائج فيهما مستساغ .

وقد سميت سور من الكتاب العزيز ببعض ماجاء فيها من أمور ، إما لفضل شهرة ، أو كثرة ، أو لمزيد تفصيل ، كسور البقرة ، والنساء والأنعام[1] .

وربما كان سبب التسمية بالحماسة أن الحماسة أول أبواب الكتاب ، فتسمية الشىء بأوله معروفة مقررة كذلك ، فقد سميت فاتحة الكتاب العزيز بسورة الحمد ، وسورة الشكر ، وسورة الحمد الأولى ، وسورة الحمد القصرى[2] ، وسميت سورة الإسراء كذلك بسورة سبحان[3] . وسمى كتاب العين بأول ما ورد فيه من كلمات ، وهو الكلمات المبدوءة بحرف العين . وكثيراً ما تسمى القصائد بمطالعها ، فيقال عن معلقة امرىء القيس قصيدة : قفا نبك ، وعن مجمهرة عبيد قصيدة : أقفر من أهله ملحوب ، وهكذا . وقد تكون التسمية بالحماسة للأمرين جميعاً .

وفى شرح التبريزى : ويقال إنه سمى بالحماسة من قبيل التغليب ؛ لأن الحماسة شجاعة العرب ، وهى الأولى من صفاتهم . ولا خلاف أن شعر الحماسة فى الكتاب أحق أن يغلب على سائر أشعاره ولكن لكثرته ، أو سبقه فى الترتيب أو للأمرين جميعاً كما ذكرنا آنفاً .

---

(١) الإتقان : ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) المصدر السابق : ٩٢ .

(٣) المصدر السابق : ٩٤ .

فأما قول التبريزى : لأن الحماسة شجاعة العرب ، وهى الأولى من صفاتهم ، فلا أوافقه عليه ، ولا أمضى معه فيه ، لأن المقام المفاضلة والاختيار بين فنون الشعر ، لا بين صفات العرب . وما أحسب أن أبا تمام نظر إلى ذلك فى عمله أو قصد إلى شىء منه .

أما هذه الكثرة التى اختصت الحماسة بها من بين سائر الفنون فى الكتاب فرجعها فى الواقع إلى أنها فن واسع المدى ، متعدد النواحى ، يحتمل شعر الفخر والنجدة ، ووصف المعارك ونحوها . وقد أضاف إليها أبو تمام فى اختياره بعض ما ليس منها ، وبعض ما لا يمت إليها بنسب قريب . وسيأتى بيان ذلك بموضعه من هذا البحث إن شاء الله .

والمختار من الشعر غالب على الكتاب ، يذهب منه بالنصيب الأوفر ، ولا يدع للرجز منه إلا القليل ، يرى مفرقاً هنا وهناك على مسافات بعيدة . ويبدو هذا غريباً من أبى تمام ، فقد كان من رواة الرجز المعدودين وحفظته المكثرين ، فيقال إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب . ومعلوم أن معاناة شىء وطول ملازمته إلى حد التخصص فيه والاشتهار به من أسباب إلفه والحرص عليه ، بل إيثاره والانحياز إليه .

وهذا صحيح ، ولكنا إذ ننظر إلى الأمر من جانب آخر لا نرى فيه للغرابة موضعا ، فلسنا نعرف كيف حفظ الفتى من الرجز ما حفظ ؟ ولسنا نعرف كذلك رأيه فيه ولا مكانته عنده بالنسبة إلى الشعر .

فجائز أنه حفظ هذه الأراجيز غير راغب فيها ولا مؤثر لها ، ولكنه أرد عليها أو أغرى بها ، فمضى إليها وإنه ليود لو أعفى منها ، او وجد له منصرفا

عنها ، فلما صار إليه الاختيار والتوجيه أشفق على الطلاب وأخذته بهم رأفة ، فلم يشأ أن يحملهم منه على مثل ما حمله عليه الآخرون .

وجائز أن أبا تمام لم يكن يحسن الرأى فى الرجز ، ولا يرى له من القدر مثل ما للشعر ، وهو رأى لم يسبق إليه أبو تمام ولا هو فيه وحيد؛ فقد كانت العرب أو ناس منها على الأقل لا يرون فى الشعر القصير البحور من الفحولة والجد مثل ما يرون فى الشعر الطويل[١] . والرجز كما لا يخفى ينظم إما من قصار البحور وإما من بحر الرجز نفسه[٢] . وأكثره مشطور أو منهوك، وكان الأخفش يخرج المشطور والمنهوك من النظم عامة ، ويجعلهما من المنثور المسجوع[٣] . وكان الرجز فى جملة أمره وليد المناسبة اليسيرة أو النظرة العابرة ؛ يقال فيها ، ويسجل صورها وتجاربها . أما الأحداث الجليلة والمقاصد المهمة فلا يكاد يعالجها أو يدنو منها إلا لماما . حتى جاء الأغلب العجلى فقصده ، وجال به حيثما جال الشعراء بالشعر[٤] .

وقال منازل بن ربيعة المنقرى يذم الرجز :

أبا الأراجيز يابن اللؤم توعدنى   وفى الأراجيز خلت اللؤم والخور[٥]

وكان المعرى يستخف الرجز وينتقصه ما سنحت له فرصة القول فيه ، فيقول فى رسالة الغفران على لسان امرىء القيس : « والرجز أضعف من الشعر » ويقول فيها كذلك على لسان ابن القارح : « ويمر بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة فيسأل عنها ، فيقال : هذه جنة الرجز ؛ فيقول : تبارك العزيز الوهاب . لقد

---

(١) راجع سيرة ابن هشام : ١ : ١٤٧ .

(٢) حاشية الأمير على المغنى : ١ : ٦٥ ؛ والحاشية الكبرى للدمنهورى على متن الكافى : ٤٩ .

(٣) المصدر السابق : ٥٢ .

(٤) الأغانى : ١٨ : ١٦٤ .

(٥) حماسة البحترى : ١٣ .

صدق الحديث المروى : إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها . وإن الرجز لمن سفساف القريض ، قصرتم أيها النفر فقصر بكم(١) »

ويقول عنه فى اللزوميات :

عجزتَ عن الكسب الذى يجلب الغنى وما أنت عن كسب الدنايا بعاجز
ومن لم ينل فى القول رتبة شاعر تقنع فى نظم برتبة راجز(٢)

ومن الرجاز من كان يرى الراجز دون الشاعر كفاية وغناء ، ويرى الرجز دون الشعر قوة واقتدارا ، ومن هؤلاء هشام المرئى فيما يروون ، فقد ذكروا أنه كان يهاجى ذا الرمة ، فلقى جرير هشاما يوما فقال له :

عليك العبد ، يعنى ذا الرمة . قال : فما أصنع ياأبا حزرة وأنا راجز وهو يقصد ، والرجز لايقوم للقصيد فى الهجاء(٣)

فإذا صح أن أبا تمام لم يكن من الذين يحسنون الرأى فى الرجز لم يكن غريبا أن تخلو منه الحماسة أو تكاد . ثم إن الكتاب من كتب المختارات ، وليس بديوان شاعر أو قبيلة ، والاختيار فيه فوق ذلك يقوم على المقطوعة لاعلى القصيدة ، فينبغى إذا أن يقصد فيه مع الجودة والبراعة إلى التيسير والمقاربة . ومعلوم أن حظ الشعر من هذه الخصال أوفر من حظ الرجز .

وقد حرص الرجل فى المختار منه أن يكون أنيس اللفظ ، سهل النهج ، لا يصعب فهم معناه ، كقول جحدر بن ضبيعة(٤)

(١) رسالة الغفران : ١ : ١٨١ ؛ ٢٢٧ .
(٢) اللزوميات : ٢ : ٧ تقنع : تكلف القناعة .
(٣) الأغانى : ١٦ : ١١٢ .
(٤) شاعر جاهلى ؛ وفارس معدود ، يقول هذا الرجز يوم التحاليق (راجع شرح التبريزى : ٢ : ٣٣

قــــد يَتِمت بنتى وآمت كَنتى (١)
وشَعِثت بعـــد الدهان جُمتى (٢)
ردوا على الخيـــل إن ألمت
إن لم يناجزهـــا فجـــزوا لمتى
قـــد علمت والدة مـــا ضمت
ما اقَّـفت فى خـــرق وشمت
إذا الــــكماة بالكماة التفت
أمخدَجٌ فى الحــــرب أم أتمت (٣)

ويدور الاختيار فى الكتاب على عشرة من فنون الشعر ، الحماسة ، فالرثاء ، فالأدب ، فالتشبيب ، فالهجاء ، فالأضياف والمديح ، فالصفات ، فالسير والنعاس ، فالملح ، فمذمة النساء .

ويقول البغدادى فى شرح شواهد الشافية (٤) : وقد رتب أبو تمام ما اختاره على ثمانية أبواب ، أولها باب الحماسة ، وآخرها باب الملح .

فهو يخالف ما ذكرت من وجهين ، فيذكر أن فنون الكتاب أو أبوابه ثمانية لا عشرة ، ويذكر أن آخرها باب الملح لا باب مذمة النساء ، ولست أعرف لهذا الخلاف وجهاً ولا سبباً ، فالأمر فى النسخ التى أعرف على ما ذكرت فى الوجهين

(١) الكنة : امرأة الأخ أو الابن . والمراد هنا امرأته .
(٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
(٣) المخدج : الناقص الخلق . يريد أن الحرب ستظهر أوضعته أمه لتمام أم لغير تمام .
(٤) ملحق بشرح شافية ابن الحاجب للرضى ، القسم الثانى : ٨ .

مع اختلاف فى بعض الأسماء يسير ، وهو كذلك فى كشف الظنون . ولو أن البغدادى رحمه الله فصل الأبواب باباً باباً كما فعلت لعلمنا أيها سقط وأيها بقى ؟ أو لعلمنا أيها لحق بغيره وأيها ظل قائماً بنفسه ؟ لكن المقام على ما يبدو لم يتسع لهذا التفصيل ، فاكتفى بذكر جملة الأبواب وذكر الأول منها والآخر .

ولا أعرف الفكرة التى اقتضت أبا تمام أن يرتب أبواب الكتاب هذا الترتيب ، فيبدأها بباب الحماسة ، ويختمها بباب مذمة النساء . وربما سبق إلى الذهن أنها الكثرة والقلة ، فقد كان لها مدخل فى تسمية الكتاب باسم الحماسة من بين سائر الأبواب . والواقع أن لا مدخل لها هنا من قريب أو بعيد ، وإلا وجب أن يكون ترتيبها هكذا

الحماسة ، لأن عدة أبياتها نحو ١٣٢٤ ، فالرائى ، لأن عدة أبياتها نحو ٦١٦ ، فالأضياف ، لأن عدة أبياتها نحو ٥٥٣ ؛ فالنسيب لأن عدة أبياته نحو ٥١٠ ، فالهجاء ؛ لأن عدة أبياته نحو ٣١٦ ، فالأدب ؛ لأن عدة أبياته نحو ٢٦٣ ، فالملح ؛ لأن عدة أبياتها نحو ١٠٣ ، فذمة النساء ؛ لأن عدة أبياتها ١٧ .

والحماسة التى يسمى بها أبو تمام الكتاب ، ويبدأ بها الاختيار فيه — تدل أصلاً على معنى الصلابة ، يقال : حمس بالكسر ، أى صلب فهو حَمِس ، وأحمس ومكان أحمس ، أى صلب . قال العجاج :

وكم قطعنا من رِقفاف حُمس

ورجل أحمس أى متشدد فى دينه ، وعام أحمس أى شديد عسر ، والجمع حُمس . وبه لقبت قريش ومَن تابعها من القبائل فى الجاهلية ، لتشددهم فى دينهم وتكلفهم فيه من المناسك ما لا يتكلف الآخرون . وكثر استعمال الحماسة واتسع

معناها حتى صارت تطلق على الشجاعة لما فيها من معنى الشدة على النفس والقرن[١].

وأبو تمام إذ يختار للحماسة لا ينظر إلى معناها الضيق المحسوس من الكر والفر والإيقاع بالأقران ولكن ينظر إلى معناها العام وإلى بعض ما يتفرع عليها من خصال كالنخوة والصبر على الأرزاء والمحن، فتقرأ في باب الحماسة مثل قول العباس بن مرداس يصف أعداءه، ويمتدح بلاءهم في القتال :

فلم أر مثل الحي حيا مصبَّحا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا

أكرَّ وأحمى للحقيقة منهم وأضربَ منا بالسيوف القوانسا[٢]

ومثل قول الآخر[٣] يذكر الأرزاء التي امتحن بها ويصف مبلغ اصطباره عليها :

روعت بالبين حتى ما أراع له وبالمصائب في أهلي وجيراني

لم يترك الدهر لي علقا أضن به إلا اصطفاه بنأى أو بهجران

ومثل قول الآخر يذكر بر ابنه به حين ضعف وعلت به السن :

رأيت رباطا حين تم شبابه وولى شبابي ليس في بره عتب

إذا كان أولاد الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

وهناك مقطوعات أوردها أبو تمام في الحماسة، وما هي منها ضربة لازب، ولكنها تحتمل الحماسة وتحتمل غيرها كمقطوعة قريط بن أنيف التي أولها :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

فهي في قسمها الأول مدح، وفي قسمها الآخر هجاء :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

(١) راجع شرح التبريزي : ١ : ٤، ٥ والتاج والقاموس

(٢) جمع قونس، وهو البيضة أو أعلاها.

(٣) يروى هذا الشعر للأرج السدوسي.

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد   ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

وقد ساقها الوسيط مثلا من هجاء الشعر الجاهلى [١] . ويبدو أن أبا تمام فى اختيارها للحماسة لم ينظر إلى موضوعها بمقدار ما نظر إلى المراد بها . وهى من هذه الناحية توشك أن تكون موازنة بين النجدة والخذلان ، وبين الحمية والإذعان ، ولكن لايراد بها مدح وذم بمقدار ما يراد بها من تبصرة وتذكير ، عسى أن يكون لقومه منها عبرة وصلاح . وهى من ثم تشبه الحماسة بل تدخل فيها وتمد منها ؛ لأنها تعظ من الإثارة وبعث الهمة .

ونلاحظ أن أبا تمام أسقط الاعتذار من الفنون التى اختار لها ، لم يذكره ولم يختر له مفرداً ولا مع غيره كما صنع لسائر الفنون ، ولست أعرف لإسقاطه وجهاً ، فهو فن كريم من القول ، جدلا هزل فيه ولا عبث ، يتصل فى الباعث عليه والقول فيه بطبيعة الحياة وأدب السلوك .

ولو لم يكن إلا هو أو الملح كما اختار لها أبو تمام ، وكان لى أن أثنى عليه فيهما شيئاً — لتمنيت أن يجىء بالاعتذار ويطرح الملح . أما الاعتذار فلما قدمت عنه آنفاً ، وأما الملح فلأن كثيراً منها لم يعف عن الخنا ولا التصريح بالعوراء ، إلى إسفاف فى الفكرة وتفه فى الموضوع .

ونلاحظ كذلك أنه لم يفرد الفخر بباب ، ولا ضمه إلى غيره وسماه معه ، كما فعل بالأضياف والمديح ، وبالسير والنعاس ، ولكنه اختار له مع الحماسة ، واختار له مع الأضياف دون أن يذكر اسمه فى الحالين كأنه لا يراه أهلا أن يفرد بباب ، ولا أن يدل عليه حين يوزع على الحماسة والأضياف ؛ لأنه جزء منهما متصل غير منفصل ، فما يكون فخراً بالشجاعة وما إليها فمن الحماسة ، وما يكون فخراً بالقرى وما إليه فمن الأضياف .

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ٤٥ .

أو لعله أغفل اسمه مع الحماسة توسعاً فيها وتغليباً لها ؛ لأن أعظم ما يفخر العربي به هو الشجاعة وما تشتق عنه من خصال . وليس يفوته وهو يفخر بها أن يذكر أيام قومه ، ويشيد ببلائهم فى الحرب وصبرهم على المكروه ، وأغفل اسمه مع المديح لأنه رآه نوعاً منه ، فكلاهما يصدر عن الإعجاب ، وكلاهما يقوم على الحمد والثناء ، وإن كان المادح ليعجب بغيره فيحمده ويثنى عليه ، والفاخر ليعجب بنفسه فيحمدها ويثنى عليها ، فأبو تمام إذاً ينظر إليهما من ناحية الباعث الذى يدعو إليهما والفكرة التى يقومان عليها ، لا من ناحية الموضوع الذى يتناولانه ويدوران من حوله .

وقد يؤيد ما ذكرنا عن نظرة أبى تمام إلى المدح والفخر أنه جمع بين شعر الأضياف وشعر المدح فى باب . وشعر الأضياف كما لا يخفى حديث عن القرى والارتياح له والمباهاة به ، فهو فخر لاشك فيه ؛ ولكن بإكرام الضيف والاحتفال له . وقد جمع بينه وبين المدح للصلة القريبة التى تدنيه منه ، وتجعله قريناً له وشبيهاً به .

وشىء آخر نلاحظه على فنون الحماسة أن لشعر السير والنعاس بينها باباً خاصا ، مع أن المختار منه لا يعدو أن يكون وصفاً من الأوصاف . وهذا مثلا قول مساحق الجرمى من باب الصفات :

أرقت وطال الليل للبارق الومض
حبيا سرى مجتاب أرض إلى أرض (١)
نشاوى من الإدلاج كُدْرِيُّ مُزْنِهِ
يُقضِّى بجدب الأرض ما لم يكد يقضى (٢)

(١) الحبى : السحاب المتراكم .

(٢) نشاوى ، جمع نشوان . يريد أن قطع السحاب تمايل من طول السرى تمايل السكارى كدرى : فى لونه ككدرة الكدرة مائه .

نحن بأجواز الفــلا قُطُــرانه كما حن نيب بعضهن إلى بعض[1]

وهذا مثلا قول حُندج بن حندج المرى من باب السير والنعاس :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليـل قد مُزقت عنه السرابيل

ليل تحــير ما ينحط فى جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول

نجومه ركــد ليست بزائلة كأنمـا هن فى الجو القناديل

وكلتا المقطوعتين كما ترى تتناول موضوعها مثل ما تتناوله الأخرى بالوصف والتصوير ، وهما إذاً من الوصف بمعناه التام ، لكن أبا تمام على ما يبدو لم يرد أن يدخل شعر السير والنعاس مع ذلك فى عموم الوصف لئلا يمتزج بجملته ، ويذهب ضياعاً فى غمرته ، فلا يكون لموضوعه ذكر ولا لشعره كيان وإنه لحقيق أن يذكر اسمه ويتميز شعره ، بل إنه لحقيق أن ينفرد اسمه بالذكر وشعره بالتسجيل ، لأنه يصف ظاهرة معلومة من ظواهر الحياة فى البادية ، ظاهرة الارتحال والضرب فى فجاج الصحراء ومعاناة ما يقترن بها من نصب ولغوب ، لا يصيبان الركب وحده ، ولكن المطايا معه ، فإذا القافلة كلها لا تقوى على مواصلة السير ولا مغالبة النعاس ، فتضطر إلى شيء من راحة وسكون .

٦) بقيت ملاحظة أخيرة على فنون الشعر فى الحماسة : أن أبا تمام فرق المختار من الهجاء فى بابين ، فجعل لهجاء الرجال باباً ، وسماه الهجاء غير مقيد بقيد ، وجعل لهجاء النساء باباً آخر ، وسماه مذمة ثم اضافها إلى النساء .

فما سر تفريقه فى البابين أولا ، وما سر الاختلاف فى التسمية بعد ذلك ؟

أعتقد أنه ينبغى أن نلتمس سر الأمرين أولا فى معنى الهجاء والذم : أهما لفظان

(١) قطرانه ، جمع قطر : الناحية .

يترادفان أم يتخالفان ؟ ثم نلتمسه آخراً فى طبيعة هجاء الرجال وهجاء النساء : أهما فن واحد ، أم فنان مختلفان ؟ .

فأما الهجاء فيقول بعض اللغويين فى تفسيره : إنه خلاف المدح[1] ، ويقول بعض آخر : إنه الشتم بالشعر[2] . وإذاً يكون الذم والهجاء عند الأولين لفظين مترادفين كلاهما خلاف المدح ، ويكونان عند الآخرين لفظين يترادفان فى المراد والقصد ، كلاهما للانتقاص والإزراء ، لكنهما يختلفان فى اللغة والأداة ، فلا يكون الهجاء إلا بالشعر ، وأما الذم فيكون به أو بالنثر .

وفريق ثالث يفسر الهجاء ، ويرجعه إلى أصله فى الاشتقاق فيقول : الهجاء هو الوقيعة فى الأنساب وغيرها ، ورمى الإنسان بالمعايب . وأصله التسكين ، من قولهم : هجا غرثه وجوعه وأهجى إذا سكن ، فكأنه إذا رمى الإنسان بالعيوب سكن من أشرافه . وقيل : بل معناه التفصيل . ومنه حروف الهجاء . وهجا فلان الكلمة إذا فصل حروفها ، فكأن الشاعر إذا هجا غيره مزقه وفصله[3] .

فالهجاء عند هؤلاء ملحوظ فيه أمران : أما أحدهما فيتصل بالموضوع ، وهو النيل من الأنساب والرمى بالمعايب . وأما الآخر فيتصل بالشكل ، وهو شدة التناول وعنف التعبير ، حتى تتحقق الصلة بين الهجاء ، وأصله وهو التسكين أو التفصيل .

ونحن إذ ننظر فى هجاء الرجال وهجاء النساء نتبين أن الأول هو الذى يتحقق فيه معنى الهجاء كما يتمثل لهؤلاء ، فهو فى جملته عام شامل ، يتناول

(١) التاج واللسان.
(٢) القاموس واللسان.
(٣) شرح التبريزى: ٤ : ٢ .

الرجل في نسبه وحسبه ، وفي شخصه ونفسه ، وفي كل معنى كريم يعتز به ويحرص عليه ، ويغلب مع ذلك أن يكون قاسياً عنيفاً .

أما هجاء النساء فهو في جملته شخصي محدود ، يصف المرأة في نفسها بشدة المماكرة وإساءة العشرة ، ويصفها في شخصها بقبح الصورة ودمامة البنية ، بما يشبه الدعابة والملح .

وهذا مثل مما أورده أبو تمام في باب الهجاء . قال بُشَير بن أبي جَذيمة :

أتخطرُ للأشراف يا قردَ جـــذيم وهل يستعد للقرد للخطران[1]
أبى قصر الأذناب أن تخطروا بها ولؤم بنى قرد بـــكل مــكان
لقـد سمنت قِعدانكم آلَ جِذيم وأحسابكم في الحى غـــير سمان

ومثل آخر مما أورده في باب مذمة النساء : قال أبو الغطمّش :

تحب النساء وتأبى الرجال وتمشى مع الأخبث الأطيش
لهـــا وجـه قرد إذا ازينت ولون كبيض القطا الأبرش[2]
وثدى يجول على نحرهـــا كقربة ذى الثلة المعطِش[3]

فكأن أبا تمام كان يفهم الهجاء كما يفهمه هؤلاء ، ويشترط فيه مثل ما يشترطون ؛ فرأى لذلك أن هجاء الرجال هو وحده الجدير بأن يسمى الهجاء وأن يطلق في التسمية به من كل قيد . أما هجاء النساء فهيهات ، وهو إذا حقيق

(١) أصل الخطر أن يشيل الفحل ذنبه عند هياجه ومصاولته لفحل آخر ؛ والمراد هنا مباراة الأشراف ومساجلتهم .

(٢) الأبرش : الذى على جلده نقط بيض أو يخالف لونها لون جلده .

(٣) الثلة : القطعة من الغنم . المعطش : الذى عطشت غنمه ، يصف ثديها بالطول والتشنج .

أن يسمى باسم آخر يطابق معناه ويحسن التعبير عنه ، فاختار له المذمة ، لا يعدل عنها ولا يرى كفاءها له ، فإنها بصيغتها والتاء التي ختمت بها لتخيل من معنى الرقة واللين ما لا تخيل كلمة أخرى بمعناها كالذم أو الثلب مثلا . ولم يكن بد من إضافة المذمة إلى النساء لأنها اسم خصصن به دون الرجال .

والنتيجة التي يمكن أن نخلص بها من هذه الجملة أن فنون الشعر لذلك العهد لم تكن حددت تحديداً دقيقاً واضحاً ، يرتضيه جمهور الأدباء ، ويتفقون فيه على رأى جميع ، فتصرف فيها أبو تمام على ما رأيت ، دون حكمة ظاهرة ولا سبب معلوم ، إلا ملاحظة الفروق اليسيرة والتزام النزول على مقتضاها فى التقسيم والتصنيف ، وإن لم يكن لها فى الحقيقة وزن كبير ولا أثر بعيد .

وعمل البحترى فى حماسته أعجب وأغرب ، فقد جعل عدد أبوابها مائة وأربعة وسبعين ، ومن يدرى لعل صاحبينا وبخاصة البحترى لم يبدأ بما صنعا أن يقسما الشعر إلى فنونه كما رأيناها ، ثم يختارا من كل فن خير ما قيل فيه ، وإنما أرادا الاختيار المجرد ، ثم صنفا المختارات على حسب الموضوع ، فأدخلا كل طائفة ذات موضوع واحد فى باب ، فكان من ذلك عدد أبواب الكتابين

وإذا كان أبو تمام كما أسلفنا يدخل فى الحماسة ما لا يبدو أنه منها إلا ببعض الحيلة والتكلف فقد كان يدخل فيها وفى غيرها أيضا ما لا يبدو أنه منها ، ولا أعتقد أن الحيلة أو التكلف يمكن أن يجدى عليه فى ذلك شيئا . فروى فى الحماسة مثلا هذين البيتين :

أبوك أبوك أربد غير شك   أحلك فى المخازى حيث حلا

فمـا أنفيك كى تزداد لؤما   لألأم من أبيك ولا أذلا

وهما كما ترى من الهجاء ، وأحق أن يكونا فيه .

وروى هذين البيتين أيضا :

نزلت على أهـل المهلب شاتيا   غريبا عن الأوطان فى زمن محـل

فما زال بى إكرامهم واقتفاؤهم   وإلطافهم حتى حسبتهم أهلى [١]

وهما كما ترى من شعر الأضياف والمديح .

وروى فى باب مذمة النساء مقطوعتين ليستا منها فى شىء ، وإنما هما فى وصف الديك . وهذه أولاهما [٢]

ماذا يؤرقنى فـدمـا ويسهرنى   من صوت ذى رعثات ساكن الدار [٣]

كأن حمـــاضة فى رأسه نبتت   من أول الصيف قد همت بإثمار [٤]

ومنها أبو تمام فروى فى باب الحماسة لأنيف بن حكيم النبهانى حماسية عدة أبياتها عشرة ، وأولها :

جمعنا لـكم من حى عوف ومالك   كتائب يردى المقرفين نكالها [٥]

ثم عاد بعد نحو ثمانمائة وخمسين بيتا فروى منها فى الباب نفسه أبياتها الأربعة الأولى .

وأطول حماسيات الـكتاب حماسية زياد بن حمل ، التى يذم فيها صنعاء ويتشوق إلى بلاده وقومه ، وأولها :

(١) اقتفاؤهم : أصل الاقتفاء تتبع الأثر ، والمراد أنهم يتبعون حاجته ورغائبه ليحققوها ويبذلوا فيها على ما يريد .

(٢) تنسب للأخطل ولم أعثر عليها فى ديوانه .

(٣) ذو الرعثات ، الديك ، ورعثة الديك بضم فسكون وتحرك . عثنونه ، وهو ما ينبت على الذقن وتحته سفلا .

(٤) الحماضه نبت أحمر الثمر .

(٥) المقرف : الذى أمه عربية وأبوه مولى ، وخص المقرفين بالذكر لأنهم عنده لا يأمنون من التقصير فى الحرب .

لاحبذا أنت يا صنعاء من بلد ولا شَعوب هوى منى ولا نقم[1]

فأبياتها أربعة وأربعون .

وتقل الحماسيات الأخرى عنها حتى تكون بيتين اثنين أو بيتا واحدا لأن هم أبى تمام لم يكن فى الرواية والجمع ، ولكن فى التمييز واختيار الجياد كما تقع فى ذوقه . وربما غلا فى الاقتصار عليها فيقتطعها من سلبها ، ويفردها من دونها بالرواية ، مع تعلقها بها وتطلع القارىء إليها ، كأبيات عمرو القنا التى رويها هكذا .

القائلين إذا هم بالقنا خرجوا من غمرة الموت فى حومانها : عودوا

عادوا فعادوا كراما لا تنابلة عند اللقاء ولا رُعش رعاديد

لا قوم أكرم منهم يوم قال لهم عرض الموت : عن أحسابكم ذودوا

ولا ندرى ما الفكرة التى كانت تسيطر على أبى تمام فى الاختيار وتوجهه إليه ، أكانت الجودة ولا شىء غيرها ؟ أم كانت الجودة فى عصر دون عصر ومن شاعر دون شاعر ؟ على أننا نلاحظ أنه أكثر الاختيار من شعر الجاهليين والمخضرمين ، وأكثر الاختيار المقلين والطائيين من هؤلاء وهؤلاء . ولكل من هذه الخصوصيات حكمة تسوغها وحجة تشهد لها ، فالشعر فى عصوره الأولى أعرق فى العروبة وأجمع لخصائص الفطرة . وكتب أصول اللغة أحق به وأحوج إليه .

وشعر المقلين أولى أن يكون أكثر صقلا وتهذيبا ، وأقل شمثا وفضولا . ألم تر إلى المنصور فيما سلف من هذه المقدمة كيف حرص وهو يرسم للمفضل منهج الاختيار للمهدى على أن يكون هذا الاختيار من شعر المقلين على التخصيص ؟ ثم إن شعر المكثرين قد علمه الناس أو كثير منهم ، فلا خوف عليه أن يضيع مع

---

(١) شعوب : قصر باليمن معروف بالارتفاع أو بساتين بظاهر صنعاء . نقم : جبل مطل على صنعاء اليمن قرب غمدان .

الزمن ، وقد جُزِي به أصحابه شهرة ورزقا حسنا . فما أحوج شعر القبائل إلى من ينشره ويذيعه ؛ وما أحوج أصحابه أن ينصفوا به ويكافئوا عليه . ولا أحسب أن التعريف بهم والاختيار لهم يتمان عن هوى ومحاباة .

ولا على أبي تمام أن يبر شعراء قومه ويفى لهم ، فينشر شعرهم ويختار منه ما دام حقيقا بالنشر والاختيار ؛ ففيه حينئذ داعيان : الجودة والقومية ، وفى شعر الآخرين من غير قومه داع واحد هو الجودة لا غير .

بل إننى لا أرى أن نأخذ أبا تمام بمنهجه فى الاختيار أبدا ، فلينهج فيه ما يشاء كيف يشاء ، لا نسأله إلا أن تجيء المختارات على شريطتها من البراعة والإحسان . ولا خلاف أنها جاءت على هذه الشريطة .

ومن ظواهر الاستكثار من شعر الطائيين أن (ذو) الطائية تتردد فى غير موضع من الكتاب ، كما فى قول سنان بن الفحل :

فإن الماء ماء أبى وجدى　　　وبئرى ذو حفرت وذو طويت

وقول قوال :

قولا لهذا المرء ذو جاء ساعيا　　　هلم فإن المشرفى الفرائض (١)

وإن لنا حمضا من الموت مُنقعاً　　　وإنك مختل فهل أنت حامض (٢)

أظنك دون المال ذو جئت تبتغى　　　ستلقاك بيض للنفوس قوابض

وقول منظور بن سحيم :

(١) قولا لهذا المرء الذى جاء واليا للصدقات : أقبل ، فستعطى السيف بدلا من الفروض من الصدقات .

(٢) الحمض : ما ملح وأمر من النبات وهى كفاكهة الإبل ، والخلة : ما حلا ، وهى كخبزها . منقع : ثابت . المختل : راعى الخلة . المعنى لقد سئمت العافية فهلم إلى البلاء .

فإما كـــرام موسرون أتيتهم   فحسبى من ذو عندهم ما كفانيا

ولا ينسب أبو تمام مقطعاته كلها ، بل ينسب بعضا ويغفل بعضاً ، وتراه حين الإغفال يقول : وقال آخر ، أو وقالت امرأة لا يزيد صفة أو يضيف إلى معين فى الحالين . أو تراه يقول : قال رجل من بنى الحارث ، أوقالت امرأة من كندة ، أوقال بعض طيىء ، فينسب إلى مجهول الاسم ، معروف القبيلة والنوع أو مجهول الاسم والنوع معروف القبيلة . أو تراه يقول : وقال أعرابى ، أو وقالت أعرابية ، فينسب إلى مجهول الاسم معروف البيئة والنوع .

وربما سبق إلى الذهن أن عدم نسبة هذه الأشعار يرجع جملة وتفصيلا إلى أن أبا تمام لم يكن يعرف قائليها . وهو سبب قد يهون فى الفهم عن مؤلف آخر لم يجتمع له كل ما اجتمع لأبى تمام من مواهب وفرص . أما عن أبى تمام فهيهات ؛ فقد كان راوية كثير الحفظ واسع الدراية ، ولم يكن فى الاختيار يعتمد على ما كان يحفظ لكن على ما كان يقرأ من كتب الشعر فى خزانة آل سلمة ، والذى لم ينسب من شعر الحماسة مع ذلك شىء كثير .

والغالب أن أبا تمام لم ينسب بعض هذه الأشعار لأنه لم يكن يعرف نسبها ، ولم ينسب بعضها الآخر إما لأنه كان يشك فى صحة نسبها ، وإما لأنه كان يعلم أنها لا تنسب إلى أصحابها قولا واحدا ، كما كان يصنع جمهور العلماء والمؤلفين من القدماء ، ولم يكن ثمة خلاف بينهم فى هذه الشنشنة إلا بقدار ما تقتضيه طبائع الأعمال التى يعالجون ، ولا أعلم مؤلفا أسبق إليها من سيبويه فى شواهد الكتاب (١) .

ويتهم المرزوقى أبا تمام بأنه كان يستبدل من ألفاظ مختاراته ألفاظاً أخرى من عنده يراها أحق منها بمواضعها . قال : « . . . تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة

(١) راجع خزانة الأدب ١ : ١٧٨ .

تشبيه فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل السلامة بأختها فى نقده . وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما فى اختياره بها[١] » . ويقول : على أنى قد نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيرا من ألفاظ البيوت التى اشتمل عليها هذا الكتاب ، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له[٢] » .

وهى تهمة خطيرة ، معناها إذا صحت — أن أبا تمام لم يكن أمينا ولا ثقة فى الرواية كما يجب أن يكون . وليس مما يهون هذه التهمة ولا مما يشفع لأبى تمام فيها أن يقول المرزوقى كالمهون لها والمستشفع فيها : « ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له » .

نعم ، فإن تغيير ألفاظ النص مهما كان سببه وكائنا ما كان مقداره — لا يبقيه خالصاً لقائله ، ولا يجعل نسبه إليه صريحاً ، وحينئذ تتوزع تبعته فيه أو ثوابه عليه بمقدار ما أصاب ألفاظه من تغيير . وهيهات إن كان مما يحتج به أن يطمئن العلماء إليه فى الاحتجاج . ولو جاز لكل راغب أن يغير من ألفاظ النصوص ما يشاء كما يشاء لكان ممكنا أن تمتحن بعض النصوص فى ألفاظها حتى لا تكاد تحكى عصرها أو تدل على صاحبها إلا قليلا .

وأعتقد أن هذه التهمة غير صحيحة ؛ لأنها تغض من الرواية ولا تتفق أصلا مع طبيعة الحفظ ولا مع الغاية التى قصد إليها أبو تمام بتأليف الكتاب .

نعم فقيمة الرواية لا تكون على قدرها من السعة والغزارة ، بل على قدرها من الضبط والإتقان ، والحفظ تقيد بالنص ورياضة على استظهاره . وأعتقد أن أبا تمام إنما قصد بكتابه أن يكون من أصول اللغة والأدب ومراجع الاحتجاج والاستشهاد . ولا يمكن أن يكون كذلك على الوجه المنشود إذا عرف عنه أنه

(١) مقدمة المرزوقى فى شرحه للحماسة : ١٣ ، ١٤ .
(٢) شرح المرزوقى للحماسة : ١ : ٨٣ ، ٨٤ .

لا يتوخى الأمانة فيما يرويه . وهيهات أن يظل أمره خافياً على الناس مهما احتال له وجد فيه .

على أن الثقة بالكتاب كاملة ، والإعجاب بصاحبه خالص غير مشوب . واسمع ما يقوله المرزوقى نفسه فى ذلك : « وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق فى اختيار المقطعات أنق مما جمعه ، ولا فى اختيار المقصدات أوفى مما دونه المفضل ونقده[١] » واسمع ما يرويه كذلك فى الموضوع : « وحكى الصولى أنه سمع المبرد يقول : ما رأيت أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبى تمام[٢] » .

ثم اسمع ما يقول الزمخشرىّ وهو من هو فى علوم اللغة والدين : « وأظلم[٣] يحتمل أن يكون غير متعد وهو الظاهر ، وأن يكون متعديا منقولا من ظلِم الليل ويشهد له قراءة يزيد بن قطيب : أُظلم على ما لم يسم فاعله . وجاء فى شعر حبيب ابن أوس .

هما أظلما حالىّ ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب[٤]

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه[٥] »

وروى التبريزى أن أبا تمام فى اختياره الحماسة أشعر منه فى شعره[٦]

(١) تقديم شرح المرزوقى للحماسة : ١٠

(٢) مقدمة المرزوقى : ١٤

(٣) هى التى فى قوله تعالى : « وإذا أظلم عليهم قاموا » (السورة : ٢ الآية : ٢٠)

(٤) من قصيدة فى مدح عباس بن لهيعة الحضرمى ، مطلعها :

تقى جمحاتى لست طوع مؤنبى وليس جنيبى إن عذلت بمصحبى

وقبل الشاهد :

أحاولت إرشادى فعقلى مرشدى أم استمت تأديبى فدهرى مؤدبى

(٥) الكشاف : ١ : ٣٥

(٦) شرح التبريزى للحماسة ١ : ٣

كلمات صدق وعدل ما كانت لتقال هكذا غير مقيدة ولا متحفظة لو لم يكن أبو تمام أمينا فى اختياره ولا ثقة ، وليس لى على هذه الكلمات مأخذ ولا تعليق إلا قولهم إن أبا تمام فى اختياره أشعر منه فى شعره ، فمعناه أن أبا تمام وفق فى الاختيار من شعر غيره مالم يوفق فى نظم شعره ، فسلمت مختاراته من عيوب لم يسلم منها بعض شعره .

وإذا تكون ثمة ملازمة بين نظم الشعر والاختيار منه ، فمن قدر على إحسان النظم قدر على إحسان الاختيار . ولا شك أن قول الشعر رياضة فنية ترهف الذوق ، وتقوى ملكة النقد والتمييز ، ولكن الارتياض بالأمر والتأهب له لا يقتضيان فى كل حال أن يجىء على الصورة المرتجاة .

وإذاً كيف تصح المفاضلة بين الشاعر فى الاختيار والشاعر فى نظم الشعر ؟ وكيف يصح تبعاً لذلك أن يقال عنه حين يحسن الاختيار أكثر مما يحسن النظم : إنه كان فى اختياره أشعر منه فى شعره ؟ نعم كيف يصح هذا وذاك وهو فى الاختيار غيره فى النظم ، أو هو حين الاختيار فى حال غير حاله حين النظم . فهو فى الاختيار ناقد ينظر فى شعر غيره ، فليس يشق عليه أن يكون منه محايدا وفى حكمه نزيها ، لكنه فى نظم الشعر عامل ينتج ، فكيف يهون عليه أن يكون منه محايدا وفى حكمه نزيها ، وإنما نتاجه من القول كنتاجه من الولد ، كلاهما عليه عزيز ، وكلاهما فى رأيه صالح ، لأنه يرى فيه ويحس منه مالا يرى الآخرون ويحسون . وقديما قيل فى مثل ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

ولا أعرف أن للمرزوقى بينة على تهمته تلك إلا قوله فيما سبق : « وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها » .

فإن لم تكن له بينة غيرها فلا أراها كافية ولا قاطعة ؛ لأن الخلاف فى الرواية

شائع مألوف ، وقلما يكون نص رواية واحدة في كل أصل فلم لا يكون الخلاف الذي يتحدث المرزوقي عنه من اختلاف الرواية لا من تغيير أبي تمام ؟ وهل الوجه الذي يدون عليه النص في ديوان الشاعر إلا رواية لها ما للروايات وعليها ما عليها ؟

وقد يسر الله الانتفاع بحماسة أبي تمام ورفع ذكرها بين العلماء والأدباء ، فإذا لهم منها مورد قريب ومعين فياض ، يرتوون منه وينقلون عنه شواهد الاحتجاج ونماذج التمثيل لكثير من مسائل العلم والأدب . ولا أحاول هنا أن أتتبعها في مظانها لأجيء بها شاهدا شاهدا ونموذجا نموذجا فذلك عمل يطول جدا ، والمقام لا يطلبه على هذا النحو ؛ لأن حاجته إليه ليست كبيرة .

فبحسبي إذا أن أعرض منها أمثلة قليلة أرجو أن تحسن الإشارة إلى جملتها ، فيكون بها غناء وفيها كفاية .

فما استشهد النحويون به من شعر الحماسة قول بعض الفزاريين :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقبا

كذاك أدبت حتى صار من خلقي أني وجدت ملاك الشيمة الأدبا

وقول آخر :

أهابك إجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول حندج بن حندج المري :

ما أقدر الله أن يدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول[1]

---

(١) صول : مدينة في بلاد الخزر ، في نواحي باب الأبواب

ألله يطوى بساط الأرض بينهما ... حتى يُرى الربع منه وهو مأهول

ومما استشهد به علماء البلاغة قول أعرابى[1] :

تمشق خديها واعلى أن ليلة ... تمر بسودى نعشها ليلة القدر
أكلت دما إن لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

وقول جعفر بن عُلبة :

هواى مع الركب اليمانين مُصعد ... جَنيب وجُثمانى بمكة موثق
عجبت لمسراها وأنَّى تخلصت ... إلىَّ وباب السجن دونى مغلق
ألمت فحيت ثم قامت فودعت ... فلما تولت كادت النفس تزهق

وقول السموءل بن عادياء :

وإنا لقوم ما نرى القتل سُبة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حبُّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طُل منا حيث كان قتيل

ومما استشهد به صاحب لسان العرب فى مادة (ساب) قول القُطامى :

ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قنا سُلُبا وأفراسا حسانا[2]

وفى مادتى (بغث وقلت) قول العباس بن مرداس :

بغاث الطير أكثرها فراخاً ... وأم الصقر مقلات نزور

(١) يروى أن هذا الأعرابى كره امرأته فقيل له : إن حمى دمشق سريعة فى موت النساء فحملها إليها وأنشد البيتين .

(٢) الجحاش : الحمر . ساب : جمع ساوب يقول : من اقتنى الحمر وعاش منها فإنا نقتنى الخيل والسلاح للغزو والغنيمة .

وفى مادة (ظن) قول دُرَيد بن الصِّمَّة :

فقلت لهـــم ظُنّوا بألفَى مدجَّج سَراتهـــم فى الفارسى المسرَّد

ومما استشهد به الزمخشرى فى الكشاف قول البَعِيث بن حُرَيث :

معـــاذ الإله أن تكون كظبية ولا دمية ولا عقيـــلة رَبرب

وقول ابن زَيَّابة :

يا لهف زيابة للحارث الصـــابح فالغـــانم فالآئب

وقول أبى عطاء السِّندى يرثى ابن هبيرة :

فإن تُمس مهجـــور الفناء فربما أقام به بعـــد الوفود وفود

وأعجب الأدباء والعلماء بمنهج الكتاب وقدروا قيمته حق قدرها ؛ فألف بعضهم كتباً على مثاله وأسموها باسمه ، وتصدى بعضهم لشرحه واكتناه أسراره وقد ذكرنا آنفاً بعض أسماء الكتب التى ألفت على مثاله وسميت مثله بالحماسة

أما الشروح فيذكر كشف الظنون منهـــا عشرين ، ويرتبهـــا على حسب وفيات أصحابها .

فمنها شرح أبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، وشرح أبى الفتح عثمان ابن جنى ، وشرح أبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى .

ويتناوله الشراح من جهات مختلفة ، يبتغون منهـــا مقاصد معينة رأوا أن لا غنى للكتاب عنها حتى تتحقق الإفادة منه على خير الوجوه . قال التبريزى فى مقدمة شرحه : « وقد فسره جماعة ، فمنهم من قصر فيه ، ومنهم من عنى بذكر إعراب مواضع منه دون إيراد المعانى ، ومنهم من أورد الأخبار التى تتعلق به وأعرض عن ذكر المعانى ، ومنهم من ذكر المعانى دون الإعراب والأخبار

(١) شرح التبريزى : ١ : ٤

أُبوَّة عانِيَة

كان حِطان بن المعلّى[1] أبا شاعراً بسم الدهر له ثم عبس ، وأقبلت الدنيا عليه ثم أعرضت عنه ، فبُدّل بالعزة هواناً ، وبالغنى فقراً ، وبالسعادة شقاء ، حتى ضاقت عليه الأرض ، وعزب عنه الرأى

ولو كان الهم همه وحده لهان الخطب ، ولكنه هم بنياته معه ، بل هم بنياته قبله ؛ فإنه بلغ مبلغ الرجال ، وأخذ من متاع الحياة بنصيب أى نصيب ، ومازال عنده بقية من قوة وإرادة ، أما بنياته فحديثات عهد بالحياة ، لا يدرين من أمرها شيئاً ، ولا يطقن من مكروهها قليلا ولا كثيراً .

لذلك فقد رأى خيراً لهن أن يعكف عليهن ، ويدع السعي فى طلب الرزق ؛ ليكفل لهن الحماية والحنان . وهو فى الأبيات الآتية يقص علينا قصته مع الدهر وقصته مع البنيات فيقول :

أنزلنى الدهر على حُكمه ... من شامخ عال إلى خفض[2]

وغالنى الدهر بوفر الغنى ... فليس لى مال سوى عرضى[3]

أبكانىَ الدهر ويارُبما ... أضحكنى الدهر بما يُرضى[4]

---

(١) فى شرح المرزوقى : خطاب بن المعلى .

(٢) إلى خفض : إلى مكان منخفض ، خفض مصدر بمعنى اسم المفعول . وخفض من باب ضرب .

(٣) غالنى : أخذنى من حيث لا أدرى . ويروى عالنى ومعناه غلبنى . بوفر الغنى : بسلب وفر الغنى ، أى الغنى الكثير

(٤) فى الشطر الأول حذف ، أى أبكانى الدهر بما يسخط ، يدل عليه . أضحكنى بما يرضى .

لولا بُنيات كزُغب القَطا   رُدِدن من بعض إلى بعض[1]

لكان لى مضطرَب واسع   فى الأرض ذات الطُّول والعرض

وإنما أولادنا بيننا   أكبادنا تمشى على الأرض[2]

لو هبت الريح على بعضهم   لامتنعت عينى من الغُمض

والشاعر يُلم فى هذه الحماسية بفنين من فنون القول : شكوى الزمن وتصوير عاطفة الأبوة . فأما الشكوى فيمضى إليها قصداً : لا يمهد لها بشىء ، ولا يلوى فى سبيلها على شىء ، فيصف حاله والزمن صفو وحاله والزمن لا صفو فيه . وأما

(١) زغب : جمع زغباء . وهى ذات الزغب أى الريش أول ما يظهر . والقطا : جمع قطاة : طائر فى حجم الحمام ، سموها بحكاية صوتها ، فإنها تقول : قطا قطا ، ولذا وصفوها بالصدق ؛ لأنها حين تصوت تهتف باسمها وتدل على نفسها . قال الكميت :

لا تكذب القول إن قالت : قطا صدقت   إذ كل ذى نسبة لا بد ينتحل

وزغب القطا معناه : القطا الزغب . رددن من بعض إلى بعض : اجتمعن لى فى مدة يسيرة من ثانية بعد أولى ، وواحدة بجانب أخرى . هكذا فسره التبريزى والمرزوقى . ومعناه أنهن صغيرات ، لكن هذا المعنى يفهم مرة من كلمة بنيات بصيغة التصغير ، ويفهم مرة أخرى من تشبيههن بأفراخ القطا . فلعله يريد أن يتم الصورة التى رسمها لهن بهذا التشبيه ، فيكون المعنى : أنهن يصنعن مثل ما تصنع الفراخ ، إذ تتضام ويرتد بعضها على بعض ؛ ابتغاء الدفء والحماية . وتشبيه الأولاد بالأفراخ معروف . قال الحطيئة :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ   زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ويروى رُدِدن من بعض إلى بعض (بفتح راء رددن) والمعنى : قوستنى وحنين ظهرى .

(٢) يريد أن الولد بضعة من أبيه منحها الله الحياة . وهو إذ يفارقها إنما يفارق بعضه ويقسم نفسه . والعرب تكثر من ذكر الكبد فى تصوير عاطفتى الحب والرحمة وما اتصل بهما . قال الصمة بن عبد الله :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى   على كبدى من خشية أن تصدعا

وقال جران العود :

أيا كبدا كادت عشية غرب   من الشوق إثر الظاعنين تصدع

وقال الحسين بن مطير :

لقد كنت جلدا قبل أن توقد النوى   على كبدى جمراً بطيئا خمودها

الوصف فيمهد له بتصوير ضعف البنيات والاعتذار بهن من القعود عن طلب الرزق .

وهو هنا وهناك لا يغرب فى خيال ولا يمعن فى تفكير ، ولكنه يؤثر العفو ويتناول من قرب . فعرض نفسه والعيش صفو فى صورة ضاحك مستبشر ، يعتصم بنجوة من الأرض ، لا تناله فيها الخطوب ، ولا يصيبه منها مثل ما يصيب الآخرين ؛ وعرض نفسه والعيش رنق فى صورة بائس مبتئس ، هان شأنه ، واتضع مكانه ، ولم يبق له غير الشرف مما يعتز به الناس ويتفاخرون .

وجعل أولاده كالأفراخ لم يشتمل الزغب عنهن ، فهن يتحيزن ويحتمى بعضهن ببعض ، لذلك فهو بهن رءوف وعليهن عطوف ، حتى ليسوءه ويقض مضجعه أن تهب الريح على أحد منهن . وجعل الأولاد من الآباء أكبادهم التى بين جنوبهم ، نفخ الله فيها من روحه ، فانتفضت بشراً سوياً يغدو ويروح على أعين الآباء ، ثم اتخذ من هذا وذاك عذرا يعتذر به من ملازمة بناته وترك السعى لهن .

ووصف عاطفة الأبوة مؤثر رقيق ، وفيه مع ذلك حركة وحياة . فقد اجتمع له من أسباب الجودة ما لم يجتمع لشكوى الزمان ؛ وألفاظ المقطعة على ما ترون من العذوبة والسهولة ، وعباراتها على ما ترون كذلك من الاستواء والوضوح .

ويذكر الشاعر لفظ الدهر ، ويحرص على تكرار ذكره ، كأنه وهو فى مقام الشكوى منه وتعداد الذنوب عليه — يريد أن يقر فى الأذهان بما لا يقبل التأويل ولا يحتمل اللبس أنه يعنى الدهر ولا يعنى شيئاً غيره بكل ما يقول ، حتى يعرفه من لم يكن يعرف ، وحتى تكون معرفته إياه عن بينة قائمة وحقيقة واقعة

وهو كقول الخنساء تبكى هلكى قومها وتفخر بهم :

تعرّقنى الدهر نهشا وحـــزا وأوجعنى الدهر قرعاً وغمزا [١]

وكقول عدى بن زيد وإن لم يكن من سببه فى التكرار من كل وجه :

(١) تعرق العظم : أخذ ما عليه من اللحم . تريد أن الدهر رماها بالكبير والصغير من نوائبه .

لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيء   نغص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

وفى العبارة من البديع طباق بين شامخ وخفض فى البيت الأول ، وبين أبكانى وأضحكنى فى البيت الثالث ، وبين الطول والعرض فى الخامس . وهو كما ترى طباق لا تكلف فيه .

وقد أكثر الشعراء من وصف عاطفة الأبوة ، وتصوير حب الآباء للأبناء ورحمتهم بهم والصبر على المكاره من أجلهم . فقال اسحق ابن خلف :

لولا أميمة لم أجزع من العدَم   ولم أقاس الدجى فى حندس الظلم (١)

وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى   ذلَّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

احاذر الفقر يوما أن يلم بها   فيهتك الستر عن لحم على وَضَم (٢)

تهوَى حياتى وأهوَى موتها شفقا   والموت أكرم نزّال على الحُرَم

أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاء أخ   وكنت أبقى عليها من أذى الكلم

والشاعر هنا يذكر أنه ضيق بالفقر ، كادح فى طلب الرزق ، حريص على الحياة لا يصدر فى ذلك عن حب نفسه ، بل عن حب ابنته والرغبة فى إسعادها ، ثم يصف ما تتعرض اليتيمة له من قسوة وقطيعة ، وما تصير إليه من حاجة ومذلة ، ويتخلص من ذلك للحديث عن عاطفة الأبوة عنده وعاطفة البنوة عند ابنته ، فيذكر أنها تحبه كما يحبها ، وتتمنى له كما يتمنى لها ، ولكنهما يختلفان فيما يتمنى كل لصاحبه : هو يتمنى لها الموت حبا لها ، وخوفا عليها ، لا بغضا لها ، ورغبة فى التخلص منها فليس كالموت للحرم ؛ لأنه يجنبها المكروه ، ويريحها من الهوان ، ويدخل فى قلوب حماتها السكينة والهدوء ؛ وهو بعد الغاية التى ينتهى إليها كل حى وإن طال الزمان .

(١) الحندس : الظلمة . العدم : الفقر والفقدان . والفعل من باب ضرب على غير قياس .

(٢) الوضم : كل ما وقى اللحم به من الأرض كالخشبة ونحوها . ووضمته أضمه : وضعته على الوضم . ومعنى يهتك الستر عن لحم على وضم : يكشف عن خلق مستضعف ذليل لا يدفع عن نفسه .

أما ابنته فتتمنى له الحياة : لأن الحياة أمنية المتمني ، وما يكاد المرء يؤثر عليها شيئاً أو يعدل بها شيئاً ، ولأن حياتها مرتبطة بحياته وقائمة عليها بل مشتقة منها .

وتتقارب هذه الحماسية والتي قبلها في جملة الخصائص والسمات : الألفاظ سائغة مألوفة والعبارات يسيرة التأليف مستوية الصياغة والأخيلة قريبة المتناول واضحة الصور أن حماسية إسحاق أطيب من أختها جرساً وأعذب نغماً؛ لغلبة الانطلاق على مقاطعها وتدارك الحركات في أصواتها . استمع إليه يقول :

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أقاس الدجى في حندس الظلم

واستمع إلى صاحبه يقول :

أنزلني الدهر على حكمه من شامخ عالٍ إلى خفض

والشاعران يختلفان بعد ذلك شخصية وفلسفة : فإسحاق حزين متشائم ، وقلق مشفق ، وجاهد مكدود ، عينه على المستقبل وفكره فيه وعمله له ، حفزه حب الخير لابنته ، وأثار فيه نخوة الرجولة ، فراح يجدّ غير وان ولا مقصر ، سواء عليه ضوء النهار وظلمة الليل ؛ ليكفل لأميمة حياة آمنة كريمة

أما صاحبه فسلبي مريض : وجد ثم فقد ، وارتفع ثم وقع ، يذكر الماضي ويحن إليه ، ويرى الحاضر فيجزع منه ويضعف دونه ، ويصور له الوهم الخادع ، والخيال الكاذب أن ليس من الخير لبناته ولا من البر بهن أن يدعهن ليضرب في الأرض ذات الطول والعرض ؛ ابتغاء الرزق وهناء العيش لهن ، كأن غنى الماضي أفسده وأوهن من عزمه .

وإسحاق لا ريب أصدق نظراً ، وأصلح فلسفة ؛ فلا خير للبنت من ملازمة أبيها لها وعكوفه عليها إذا كانت من جراء ذلك لا تأمن أن تصير بعده إلى حياة الهوان والضياع أما دعوى الحماية والإشفاق فتعلة غير مجدية ولا مغنية ؛ لأن البنت بعد أبيها أحوج إلى الحماية وأحق بالإشفاق منها في حياته ، فقد تجد في حياته من بر

بالأصدقاء ، وصلة ذوى الرحم ما لا تجد شيئا منه بعد مماته . فـلأن يدعها إذا وهو حى ليتكفل لها من بعده حياة آمنة مطمئنة خير لها من أن يجلس إليها ليؤنسها ويذود عنها ما عسى أن تتعرض له من سوء ، حتى إذا جاء أجله تركها من خلفه للحاجة والمذلة والضياع ! .

ومقطوعة ثالثة لابن الرومى ليست من هاتين فى المناسبة ؛ لأنها من مرثية ولد فقيد ، لكنها منهما فى الموضوع ، إذ كانت كل تصور عاطفة الأبوة ، وتعرض مشاهد من شقاء الآباء بالأبناء ، حين تجرى المقادير عليهم بما لا يشتهون .

قال ابن الرومى :

عجبتُ لقلبى كيف لم يَنفطر له   ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وما سرّنى أن بعته بثوابه   ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
وما بعته طوعاً ولكن غُصبته   وليس على ظلم الحوادث من مُعد (1)
وإنى وإن متعت بابنىّ بعده   لذاكره ما حنت النيب فى نجد (2)
وأولادنا مثل الجوارح أيها   فقدناه كان الفاجعَ البين الفقد
لكلٍّ مكان لا يسد اختلاله   مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه   أم السمع بعد العين يَهدى كما تَهدى
لعمرى لقد حالت بىَ الحال بعده   فياليت شعرى كيف حالت به بعدى
ثكلت سرورى كله إذ ثكلتُه   وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
أريحانةَ العينين والأنف والحشا   ألا ليت شعرى هل تغيرتَ عن عهدى ؟

وابن الرومى فى مقطوعته غير صاحبيه فى مقطوعتيهما . هو مفجوع مرزوء ،

(1) معد : معين ، من أعداه على عدوه .
(2) النيب : جمع ناب ، وهى الناقة المسنة .

وكلاهما متوجس مكروب ؛ لذلك فهو أثقل هماً وأشد حرقة وألماً . أما فنه فجار على عطله المعتاد من بسط الفكرة ، وتشقيق الخيال ، والترسل فى العبارة ، والافتنان فى الأسلوب ؛ لغلبة الاسترابة والتوجس عليه ، ولحسن مطاوعة اللغة له ، وقدرته على التصرف فيها بما يريد .

ويتوارد عليه فى هـذه المقطوعة ألوان من العواطف والانفعالات ، فهو من قلبه فى حيرة وإنكار ، يعجب له كيف سلم من المصاب وتماسك دونه ، مع أنه المصاب الذى ينفطر له وإن يكن فيما يعلم من أمره أقسى من الحجر الصلد .

وهو على الدهر ساخط وبه ضائق : لظلمه إياه وبغيه عليه ، إذ اشترى منه ابنه وما كان يريد بيعه ولو جعلت الجنة ثمنه ، فليس يعدله عنده شىء . وكأنه يشعر هنا بحرج موقفه ووهن مقالته عن الدهر ، فإنما يكون البيع عن رضا وقبول ؛ ففيم الشكوى وعلام السخط إذاً ؟ أهو التجنى أم الافتيات ؟

لذلك تراه استدرك الأمر ، وراح يبرىء نفسه ، ويحتج لقضيته ، ويثير الناس على الدهر فأعلن أنه لم يسلم ابنه طوعا ، ولكنه انتزع منه عصبا ؛ وقد كان به ضنينا وعليه حريصاً ، وما كان له من الدهر عاصم ولا له عليه معين . فهل عليه إذا بكاه فأطال البكاء ، وذكره فأطال الذكرى لا يلهيه عنه ولا ينسيه إياه أن يكون فى أخويه متعة .

وكأنه أحس مرة أخرى حرج موقفه ووهن مقالته للناس ، أو كأنه أحس منهم الشك والإنكار وقدر أنهم يتساءلون : كيف لا يرضى أن يبيع ابنه بالجنة مع أن له ابنين آخرين غيره ؟ أما كان ينبغى أن يكون له فيهما وفى الجنة معها عزاء عنه وبدل يجزىء فيه ؟ وماذا عسى أن تكون حاله لو أنه فقد ابنه ذاك ولم يكن له ابن سواه ؟

لذلك تراه قد استدرك الأمر ، وراح يدافع عن نفسه ويحتج لها ويفهن فى

الاحتجاج ما شاء . فجعل الأولاد من أبيهم كمثل الجوارح من الجسم ، فإذا كان لكل جارحة عمل تؤديه ولا يغني غيرها فيه فإن لكل ابن مزية لا يصبر على فقدها ولا غناء لغيرها فيها ، لا يختلف في ذلك جلد ولا جزوع

ويبدو انه حين بلغ هذه الغاية شعر أنه قد أبلى في شرح قضيته ، وأن الناس من حوله قد آمنوا بها ووافقوا عليها ؛ فتركهم وأقبل على نفسه ينظر إليها ويفكر في أمرها ، فإذا هو في حال غير الحال : أصبح شقياً وكان سعيداً ، وأصبح زاهداً وكان راغباً ، فتمنى لو عرف حال ابنه كما عرف حال نفسه : عسى أن يكون خيراً حالا وأهنأ بالا . ثم أخذته غمرة جارفة من اللوعة والحزن فإذا به يراه ويستمتع بخصائص ذاته ، فصاح يناديه ومضى يسائله : ألا يزال كعهده به ، أم أن الذي غير أباه قد غيره وبدل بحاله حالا ؟

ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى . . أريحانة العينين والأنف والحشا

وهو في عرض صوره وإزجاء خواطره على ما ترون من الاطراد والمتابعة ، ينظر أمامه ولا يعود إلى شيء انصرف عنه ليدرك مافاته منه ؛ ولا كذلك صاحباه ، فقد عاد كلا عما في مقطوعته يتم ناقصاً بعد ما خلاه وأخذ في غيره .

عاد حطان إلى الحديث عن ضعف بناته بعد ما اعتذر من ملازمته لهن ، ووصف الأبناء في رأى الآباء . وعاد إسحاق إلى المكاره التي يخشى أن تعرض لها ابنته من بعده ، مع أنه كان انصرف عنها إلى الكلام عن تبادل الحب والأماني .

أما عبارة ابن الرومي فتوشك في استرسالها وسلامتها من الفضول أن تكون نثرا لا نظما . وأما الأسلوب فمتنوع متعدد ؛ يراوح بين الخبر والاستفهام ، وبين التمني والنداء .

لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى؟

وهذه مقطوعة تشبه حماسية إسحاق بن خلف فى كثير من السمات ، قالها أبو خالد القنانى[١] وكان من قَعَد[٢] الخوارج :

لقد زاد الحياة إلىّ حُبّاً ... بناتى : أنهن من الضعاف
أحاذر أن يَرَيْن الفقر بعدى ... وأن يشربن رَنْقا بعد صاف
وأن يعرَيْن إن كُسِى الجوارى ... فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سوّمت مهرى ... وفى الرحمن للضعفاء كاف
أبانا من لنا إن غبت عنا ... وصار الحى بعدك فى اختلاف

ومقطوعة من الرجز لعمارة بن عَقيل ، يخاطب بها ابنته ، ويصف فيها حبه لها ومبلغ هذا الحب من الأصالة والتمكن .قال :

حبـــك ياذات الأُنيف الأكشَم[٣]
حب تساقاه مُشـــاش أعظمى[٤]
ودب بين كبدى ومحـــزمى
وساطـــه الله بلحمى ودمى[٥]

(١) كتب إليه قطرى بن الفجاءة المازنى يقول :

أبا خالد يا انفر فلست بخالد ... وما جعل الرحمن عذرا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى ... وأنت مقيم بين لص وجاحد

فكتب إليه أبو خالد أبياته تلك .

(٢) هم الذين لا يمضون إلى القتال

(٣) الأكشم : المقطوع . يريد وصف أنفها بالصغر كأنما قطع جزء منه .

(٤) المشاش : كل عظم لا مخ فيه .

(٥) ساطه : خلطه ، والفعل كقال .

فليس بالمَذق ولا الملكَّم (١)
ولا الذى إن يتقادم يُسأم
لقد نزلتِ من فؤادى فاعلمى
منزلة الشىء المحَب المكرم

(١) المذق : الخادع ، والمراد هنا الممذوق .

بُنُوَّة عاقة

وهذه أم يقال لها : أم ثواب ، شقية محزونة ، كان لها ولد نشأ فى كنفها ، فربته وقامت عليه كأحسن ماتصنع الأم البرة الحاذقة العطوف . لكنه لم يكد يقوى عوده ، ويقوى متنه ، ويسكن إلى زوجه حتى تنكر لأمه ، وأساء عشرتها ، لا يرعى حقها ، ولا يرحم ضعفها ، ولا يوقر شيخوختها .

وزادها إلى ما بها من هم وشقاء أن زوجه كانت كنودا عاقة مثله ، كانت تبغضها وتسىء إليها وتهزأ بها . وأم ثواب تقص علينا قصتها هذه فتقول :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمُه	أم الطعام ترى فى جلده زَغَبا (١)
حتى إذا آض كالفُحَّال شذّبه	أبّاره ونفى عن متنه الكَرَبا (٢)
أنشا يمزق أثوابى يؤدبنى	أبعد شيبى عندى يبتغى الأدبا
إنى لأبصر فى ترجيل لِمته	وخطُّ لحيته فى خده عجبا (٣)

(١) أم الطعام : المعدة ، تريد أنها تولت أمره منذ كانت معدته أتم أعضائه وأقواها على العمل .

(٢) آض يئيض : صار من حال إلى حال . الفحال : ذكر النخل خاصة . أباره : القائم على شئونه ، أبر النخل من باب ضرب : أصلحه ولقحه . المتن : مابرز من الظهر إلى جانب الصلب ، وللظهر متنان .

(٣) ترجيل الشعر : مشطه . ويطلق أيضا على تجعيده . اللمة : الشعر الذى يجاوز أسفل الأذن . خط لحيته : نباتها . تريد أن أخلاقه فى الطفولة تحولت حين بلغ الشباب تحولا عجيبا : كان وديعا فصار شرسا ، وكان رحيما فأصبح غليظ القلب

قالت له عرسه يوما لتسمعنى : مهلا فإن لنا فى أمنا أربا

ولو رأتنى فى نار مسعّرة ثم استطاعت زادت فوقها حطبا

وأم ثواب فى هذه الأبيات تعرض قضية خالدة ، وتشكو شكوى متجددة ، رددتها الأمهات أو كثير منهن قديما ، ولا يزلن يرددنها إلى اليوم ، وسيظللن كذلك يرددنها فى المستقبل ، حتى يرين الواقع على حقيقته ، ويرضن أنفسهن على إساغته واحتمال أثقاله ، فيؤمن بأن أبناءهن منذ اليوم الذى يصبحون فيه أزواجا لا يبقون كما كانوا للأمهات وحدهن ، ولكنهم يصبحون على الأقل شركة بينهن وبين أزواجهن ، لكل حق معلوم ونصيب مقسوم .

وهى تصف ابنها فى صغره وكبره ، وفى احتياجه إليها واستغنائه عنها ، وتصف زوجه فى نفاقها وخداعها ، وفى عداوتها وحقدها .

وهى تعول فى كل أولئك على التشبيه والتمثيل وحكاية الأقوال : شبهت الولد فى صغره بالفرخ ، وفى كبره بالفحال ، ومثلت مبلغه من الاحتياج والعجز بالإيماء إلى حال المعدة معه وحاله معها ، هى تعمل وتطلب ، وهو لا يستطيع أن يعينها بشىء ، ولا أن يجيبها إلى طلب .

ومثلت مبلغه من الرقة والضعف بذكر الجلد ، يرى عليه زغب ، ولا يرى عليه شعر ، ومثلت حالها من العناية به ، وحاله من الإفادة منها بتشذيب الفحال ونفى الكرب عنه ، ومثلته فى قسوته وفساد رأيه بذكر تمزيق الثياب ورغبة التأديب بعد فوات الأوان .

وحكت كلام زوجه كما قالته ، ومثلت كراهتها لها وحقدها عليها بذكر النار المستعرة تصلى الأم بنارها ، وذكر الحطب تلقيه زوج الابن عليها إن استطاعت تزيدها اشتعالا .

وذكرت فى تشبيهها الفرخ والنخل ، وكلاهما فى الحياة عريق ، وعند الناس معروف ؛ فهو إذاً تشبيه عام مشترك ، لا يختص ببيئة دون بيئة ولا بعصر دون عصر . وليس فى ألفاظها جفوة ولا عبارتها غموض إلا قولها :

إنى لأبصر فى ترجيل لمته وخط لحيته فى خده عجبا

فإنه كما ترون ليس صريح الدلالة على معناه ، حتى ليمكن لولا المقام أن يقال : المراد به العجب ؛ وأن يقال : المراد به الإعجاب . أما بقية الأبيات فما منها إلا واضح صريح .

وكلمة (لتسمعنى) فى البيت الخامس من الكلمات الموفقة المباركة تقع بأصلح المواطن لها وأليقه بها ، فتؤدى فيه بالإيماء والتخييل ما لا يؤديه من مثلها إلا القليل ، فإنها على قلة حروفها وقصر لفظها لتومىء إلى زوج الابن فى خدعها الأم وسخريتها بها ، ثم تمثلها فى بنى زوجها على أمه خالبة متفرجة ، اتخذت مكانها بحيث تسمعها الأم منه ولا تراها فيه ، وتمثلها فى حديثها إلى زوجها متصنعة كاذبة ، تشير إليه بإصبعها وعينيها ألا تصدق ما أقول ، فإنى فيه هازلة غير جادة ومبطلة غير محقة .

وعبارة (مهلا فإن لنا فى أمنا أربا) تومىء إلى سوء نية الزوج وافتضاح المكنون من أمرها ، فهى تدل على أنها حين دعت الابن إلى الرفق بأمه لم تدعه رحمة بها ولا رغبة فيها ، ولكن إبقاء على منفعة مرتجاة .

ويبدو أن الأم إذ صورت ابنها هذه الصورة من الجهارة وشدة الأيد ومتانة التركيب كانت تنظر بعين الأنثى ، وتصدر عن عواطفها أكثر مما تنظر بعين الأم وتصدر عن عواطف صاحب الفضل حين يجحد فضله ، ويضطر إلى تعداده والمن به على من أسداه اليه .

وحماسية أخرى ينسبها بعض الرواة إلى أمية بن أبي الصلت ، يقولها في ابن له عاق ، فيذكر كيف نشأه وأحسن تنشئته ، وكيف جزاه الابن على صنيعه فأساء الجزاء ، ثم يلومه وينكر عقوقه ، ويصفه بخطل الرأى ، ومجانبة أهـل الحق والصواب وهذه هي :

غذوتك مولوداً وعُلتك يافعـاً ... تُعَلُّ بما أُدنى إليك وتُنْهَلُ (١)

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبِت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ (٢)

كأني أنا المطروق دونك بالذى ... طُرِقتَ به دونى وعينىَ تهمُلُ

فلما بلغتَ السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلتَ جزائى منك جبهاً وغلظة ... كأنك أنت المنعم المتفضـل (٣)

فليتك إذ لم ترعَ حق أبوتى ... فعلتَ كما الجار المجاور يفعـل

وسمَّيتنى باسم المفنَّد رأيه ... وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل

تراه معداً للخلاف كأنه ... بِرَدٍّ على أهل الصواب موكل

والمقطوعتان كما ترون تدوران على العقوق والشكوى منه ، وتتواردان فيهما على خواطر واحدة أو متقاربة في جملة الأمر ، وإن تكن أولاهما لأم والأخرى لأب ، فكل تمدد الإحسان إلى الولد من لدن نشأته إلى حين فتوته ، وكل تذكر كيف جحد الإحسان وجزى به سوءا .

(١) تعل : أصل العلل الشرب الثانى ، عل يعل بضم العين وكسرها ، لازم متعد ، تنهل أصل النهل الشرب الأول ، والفعل من باب طرب . ويروى منك بدل علتك ، وأجنى بدل أدنى ، والمراد : تصيب ما تشاء من الطعام الذى أجيئك به .

(٢) يروى آبتك بدل نابتك ، وبالشجو بدل بالشكو .

(٣) الجبه : مقابلة الإنسان بما يكره ، وأصله الضرب على الجبهة ، والفعل كمنع .

وكلا الأبوين يجرى فى غير ميدانه حين يحدث عن فضله ويعدد مآثره على ابنه ، فالمتوقع فى هذا المقام أن يكون هم الأم إلى خصائصها فى مجالى الرحمة والحنان ، وأن يكون هم الأب إلى خصائصه فى مجالى الحفاظ وابتغاء الرزق ، لكن الأم سكتت عن خصائصها وتبدلت بها خصائص الأب :

ربيبة وهو مثل الفرخ أعظمه   أم الطعام ترى فى جلده زغبا

حتى إذا آض كالفحال شذبه   أباره فنفى عن متنه الكربا

كأنما كانت ترى أن خصائص الأمومة هنا ليس فيها كبير غناء ، ولا هى مجال لفضل عظيم ، إما لأنها من وحى الفطرة وبدافع الغريزة ، فالأم فيها مضطرة وإليها مسوقة ، وإما لأنها فى واقع الأمر حقيقة مقررة والعلم بها ثابت : فالقول فيها ضرب من التزيد والفضول ، وإما لأن الوليد فى نشأته أحوج إلى القوة العاملة ، تكشف عنه العادية ، وتمسك عليه الرمق . أما الرحمة العاجزة والحنان المتعطل فليس يفيد منهما غير الرثاء له ، والإشفاق عليه .

فهى الأم إذا أنها كانت بحكم الطبيعة أما لابنها ، لكنها اضطرت مع ذلك أن تكون له أباً ، فالتزمت خصائص الأبوة ، وراضت نفسها عليها حتى أحسنتها ، وأحمدت بلاءها فى تربية الوليد . فمن حقها أن تفخر بها ما بدا لها الفخر ، وأن تتحدث عنها ما طاب لها الحديث .

أما الأب فقد جمع فى حديثه وتعداد فضله بين خصائص الأب والأم جميعاً :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً   تعل بما أدنى إليك وتنهل

إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت   لشكواك إلا ساهراً أتململ . . .

كأنه رأى أن اليد فى نشأته لا غنى له عن الوالدين معاً ، فماذا يأخذ وماذا يدع من خصائصها إذا بدا له أن يتحدث عن فضله فى تربية ابنه ؟ لا مجال هنا لإيثار أو ترجيح ، وإذا لا يسعه إلا أن يتحدث عن خصائص الأبوة والأمومة جميعاً .

وإذا يكون معنى الأب أنه كان لابنه أبا بالطبيعة ، وأما بالرياضة والاعتياد ، لا يجد من ذلك بدا ؛ لينشأ فى نفسه وجسمه كأحسن ما ينشأ الفتيان .

والأم إذ تشكو ابنها ترفق به وتقل القول فيه ، وإذ تشكو زوجه تعنف بها وتكثر القول فيها ، كأنها لحبها إياه ورحمتها به لا تريد أن تفرده بإثم العقوق واحتمال تبعته ، بل لا تريد أن تجعله أصيلا فيه أو مختاراً ، مع أن قسوته عليها كانت بالغة ، وإساءته إليها شديدة .

أما الأب فيعنف بابنه ، وينوع القول فى مؤاخذته : يتهكم به ، وينتقصه ، ويرد عليه خطابه بأشد منه ، فيقول له فيما يقول : كأنك أنت المنعم المتفضل ، فعلت كما الجار المجاور يفعل ، وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل ، مع أنه لم يبلغ فى عقوق أبيه مبلغ الآخر فى عقوق أمه ، لكن القائل هنا أب ، فيه قوة الرجولة وشدة أسها .

وقد يكون لاختلاف الوالدين هنا فى الطبيعة عمل وتوجيه فى اختلاف الولدين فى العقوق ، فإذا عقوق الأول لأمه تمزيق وتأديب ، وعقوق الآخر لأبيه سوء خطاب ، وتفنيد رأى ، ولجاجة فى الجدال .

وإذا صح أن الأم حين صورت ابنها بنية متينة ، وقامة مديدة كانت تصدر عن أنوثتها ، وتستلهم مثلها فى الرجل فإن الأب فى الزراية على ابنه ، وتمنيه عليه إذا لم يكن له كما يكون الابن ، أن يكون له كما يكون الجار كان يصدر عن رجولته ، ويستلهم مثله فى الرجل كذلك .

وتتقارب المقطوعتان فى نمط التعبير إجمالا ، إذ تأخذان فيه على سمت القصص إلا أن الأولى شاكية حاكية ، تحتفل فى العرض بتشبيه التمثيل ، والتعليق على الأقوال والأعمال ، والأخرى مخاطبة مؤاخذة ، تحتفل فى العرض بتشبيه التهكم والتقريب .

ومن الأبناء من كان عون أبيه على الأحداث، وقرة عينه في الحياة؛ فشكر له، وجزاه به رضا وحمداً، كالذي يقول والده فيه[1] :

رأيتُ رباطاً حين تمَّ شبابه ... وولّى شبابي ليس في بره عتب
إذا كان أولاد الرجال حزازة ... فأنت الحلال الحلو والبارد العذب[2]
لنا جانب منه دَميث وجانب ... إذا رامه الأعداء ممتنع صعب[3]
وتأخذه عند المكارم هزة ... كما اهتز تحت البارح الغصنُ الرطب[4]

---

(١) في التبريزي : قال أبو رياش هو لأبي الشغب العبسي . وقال أبو عبيدة : للأقرع ابن معاذ القشيري .

(٢) الحزازة : وجع في القلب من غيظ أو أذى .

(٣) دميث : سهل ، والفعل كفرح . ومن أمثالهم . دمث لجنبك قبل النوم مضطجعا

(٤) البارح : الريح الحارة في الصيف ، مأخوذ من البرح وهو الأمر الشديد .

طعنة ثائر

هذا قيس بن الخطيم ، قُتل جده عَدِي ، وقتل أبوه الخطيم قبل أن يثأر لعدي فأما الجد فقتله رجل من عبد القيس ، وأما الأب فقتله رجل من بني عامر بن صعصعة . وكان قيس يومئذ صغيراً ، فأخفت الأم مقتلهما عليه ، حتى كبر الغلام ، فنازع يوماً فتى من أقرانه ، فقال له الفتى : لو اصطنعت شدتك هذه في الثأر لأبيك وجدك لكان خيراً لك ، وأجدى عليك .

فاغتاظ قيس وانطلق إلى أمه يعزم عليها لتخبرنه خبرهما ، ففعلت لا تخشى عليه بأساً ، فقصد إلى مَرّ(1) الظّهران يريد خداش بن زهير ، وكان للخطيم يد عنده ، فقص قصته عليه ، فأمكنه من قاتل أبيه فقتله . ووثب قومه ليقتلوه به ، فمنعه منهم خداش ، وقال : أتقتلون رجلا لم يقتل صاحبكم بغياً ، ولكن أخذاً بثأر أبيه ؟ فكف عنه القوم .

وركب معه خداش إلى البحرين حتى أتيا قرية قاتل الجد ، فكمن خداش ، ومضى قيس يسأل عن صاحبه حتى دُل عليه ، فزعم أنه كان يريد هذه القرية ، فلما دنا منها عدا عليه لص فسلبه ، وأنه جاء يستعديه عليه ، فدعا الرجل ناساً من قومه ليركبوا معه ، فضحك قيس وقال : إن سادتنا إذا دُعوا إلى نجدة خرجوا إليها لا يكلون أمرها إلى أحد ولا يصحبهم فيها أحد ، فنفر الرجل وحده

---

(1) الظهران : واد قرب مكة ، عنده قرية يقال لها « مر » ، تضاف إليه فيقال : مر الظهران .

حتى إذا بلغنا مكمن خداش نهض إليه خداش ، فصار فى وجهه ، ووثب قيس فقتله

ويقص علينا قيس قصته هذه فى حماسية له ، فيقول :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لهـا نـفذ لولا الشعاع أضاءها[2]

ملكت بهـا كفى فأنهرت فتقها ... يرى قائم مـن دونها ما وراءها[3]

يهون على أن ترد جراحهـا ... عيونَ الأواسى إذ حمدت بلاءها[4]

وساعدنى فيهـا ابن عمرو بن عامر ... خـداش فأدّى نعمة وأفاءها[5]

وكنتُ امرأ لا أسمع الدهر سبة ... أُسب بها إلا كشفت غطاءها[6]

---

(١) كذا فى شرح التبريزى . وفى الأغانى (٣ : ٢) أن جده عدى بن عمرو قتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقال له مالك ، وقتل أباه الحطيم بن عدى رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر .

(٢) ثائر : آخذ بالثأر ، والفعل من باب فتح . النفذ : الخرق ، ويروى نفث ، فيكون المعنى لها : دم تنفثه ، أى تنفخه نفخاً وثيقا . الشعاع ، بفتح الشين : التفرق ، فالمعنى : لولا انتشار الدم لأضاءها النفذ . ويروى : الشعاع بضم الشين ، وفسره التبريزى بنور الشمس ، ثم استحسن الأول دون ان يذكر وجه الاستحسان ، ولعل وجهه أن الشعاع يضيء لا يمنع الإضاءة ، فإن يكن هذا مراده فـكما قال أما إذا فسرنا الشعاع بضوء الدم وحمرته وتفرقه كما فى اللسان (شع) فلا نعرف لهذا الاستحسان وجها .

(٣) ملـكت بها كفى : سيطرت على كفى فى الطعنة ؛ فأوقعتها على ما أريد . أنهرت : وسعت ؛ فتدفق منها الدم . من دونها : من أمامها . ويروى : يرى قائما من دونها من وراءها (بفتح ميم من فى الموضعين) ، فالمعنى : يرى من أمامها إذا كان قائما من يكون وراءها .

(٤) الأواسى ، جمع آسية ، وهى المداوية . قال التبريزى : وإنما ذكر النساء لأنهم يأنفون من الصناعات ، ويعلوتها العبيد والإماء وحرائر النساء أحيانا .

(٥) أفاءها : عندى إياها من الفىء بمعنى الغنيمة ، أو رجعها إلى من الفىء بمعنى الرجوع ؛ ورواية الأغانى : سامحنى بدل ساعدنى ، أى تابعنى ووافقنى .

(٦) يروى : أُسمع بضم الهمزة .

فإنى فى الحـــرب الضَّرُوس موكل ... بإقدام نفس ما أريد بقـــاءها[١]
إذا ما اصطبحتُ أربعًا خطّ مئزرى ... وأتبعتُ دلوى فى السّماح رِشاءها[٢]
متى يأت هـذا الموت لا تُلفَ حاجة ... لنفسىَ إلا قد قضيتُ قضـاءها[٣]
ثأرت عَدِيا والخطيم فلم أُضِـــع ... ولاية أشياخ جُعلتُ إزاءهـــا[٤]

وهذه الحماسية كما ترون لا تصور محنة الشاعر وحده، ولـكن محنة الحياة البادئة كلها أو تـكاد، لـكثرة ما تقع فيهـا ويتعرض الناس لها، إذ لا قانون هناك ينظم الجماعة، ويبين لها الحلال والحرام، ولا حكومة تقيم الوزن، وترعى الحق، وترد البغى، وتحمل على الجادة، وإنما هناك القوة والجبروت .

ويزيد من قسوة المحنة فى قصة قيس أنه لم يكد يستقبل حياة الشباب بمـا تزخر من الأمانى والأحلام، ومن اللذائذ والمتع، ومن الإقبال والاستبشار حتى دفع عنها، وحمل على خلافها فى غير رحمة ولا هوادة . دعاه الدم المسفوك، والتراث الموروث إلى حياة أخرى مرة قاسية، يثقل فيهـا الهم، ويهيج الشر، ويضطرم الحقد، ويعزب الرشد .

(١) الضروس : الصعبة القاسية، من قولهم : ناقة ضروس . أى سيئة الخلق، تعض حالبها . ويروى : العوان بدل الضروس، وهى التى قوتل فيها مرة، كأنهم يجعلون الأولى بكراً، من قولهم : بقر أو خيل عوان، أى نتجت بعد بطنها البكر . والعوان من النساء : التى كان لها زوج .

(٢) المئزر : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه، ومثله الإزار . ومعنى (خط مئزرى) : أنه يسحبه تيها فيخط فى الأرض . ويروى حط بمعنى نزل وانحدر، والمعنى واحد . الرشاء : الحبل . ومعنى (أتبعت دلوى الخ) : أنه فى سكره يتم ما بدأ فى صحوه من أعمال الجود فيبلغ فيه الغاية، ومثله : أتبع الفرس لجامها .

(٣) لا تلف : روى بالتاء مبنيا للمجهول، وبالياء مبنيا للمعلوم، والضمير للموت قضيت قضاءها : فرغت منها وأدركت غايتها .

(٤) جعلت إزاءها : وليت أمرها، من قولهم : هو إزاء المال، أى سائسه ومتولى شئونه .

فإما إقدام على الغرر والمخاطرة ، وإما إحجام على العار والسبة ،وما كان لمثله في إباء الضيم وتوفز الحس أن يختار الإحجام أو يهم به ، فكان الإقدام والظفر ، أعان عليه ، ويسر أسبابه خداش بن زهير صديق الخطيم .

إذا لقد أحسن قيس الخلافة ، وأدى الأمانة ، فحق له أن يرفع رأسه ، ويعدد محامده ، لايبالي أن يقع على الموت أو يقع الموت عليه ، ولا أن يعجل إليه الموت أو يستأخر عنه ، فليس له بعد أن ثأر عديا والخطيم غاية لم يبلغها أو حاجة لم يظفر بها .

إني أبى الله أن أموت وفي صـــدري هم كأنه جبـــل
يمنعني لذة الشراب وإن كان قطابا كأنه العســل (١)

والشاعر في حماسيته هذه يحسن وصف طعنتـه لخصمه ، ولا يفوته أن يأتي بلطائف من أسرار البلاغة وامتياز التعبير . فالوصف كما رأيتم محدود المدى ، واضح الحدود ، يصور فيه مبلغه حين هم بالطعنة من القوة والاستجماع ، ويصور كذلك مبلغها هي إذ طعنها من سعة النفذ ، وبشاعة المنظر ، وغزارة الدم المتدفق منها ، وطيب الأثر الذي كان لها عنده .

وكلمة (موكل) في البيت السادس ، ومعها كلمة (نفس) على ما ترون من الإبهام والتنكير تزيدان معنى الشاعر سموا ، وتكسبان فخره قوة . ففي الأولى إشارة إلى أن الإقدام في الحرب الضروس عمل ندب له وعهد إليه فيه ، فجعل منه شغلا له شاغلا وهما ملازما ، لايتحول عنه ولا يقعد دونه . وفي الكلمة الأخرى إشارة إلى أنه يرى نفسه التي بين جنبيه نفسا ما من غمار النفوس ، فهو لذلك يبذلها يوم الروع وفي ساعة العسرة رخيصة هينة ، غير باخل بها ولاضنين عليها .

---

(١) القطاب : الممزوج بغيره . والشعر للمثلم بن عمرو التنوخي .

وكلمة (هذا)، يشير بها إلى الموت في البيت الثامن تعنى أن الموت منه قريب، لكثرة مايبرز له ويسعى إليه. وانظروا بعد ذلك إلى قوله: أنهرت فتقها وكشفت عطاءها، وخط منزى، وأثبتت دلوى في السماح رشاءها. ألا ترون أنها من لمبارات المتميزه والكنايات المصـــورة، تعلق بالذهن، وتطيب في الذوق، تذهب في الكلام مذاهب الأمثال.

ويأخذ النقاد على قيس هذه المبالغة في وصف الطعنة، ويركبه بعضهم في نقدها الدعابة والتهكم، فيقول إسحاق الموصلي:

كنا نستشنع قول قيس بن الخطيم:

طعنت ابن عبد القيس، البيتين

حتى أنشدنى أبو عبيدة:

ضربتـــه في الملتقى ضربة فزال عن منكبـــه الكاهل

فصـــار ما بينهما فجوة يمشى بها الرامح والنـــابل

فكان هذا أعظم وصفا

ويقول الأصمعى: أتيت شعبة بن الحجاج فأنشدنى لقيس بن الخطيم:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر

وذكر البيتين. قال: وضحك شعبة، ثم قال: والله ماطعنه، ولكنه نقب في جنبه دربا(١)

وما أرى أن هذه المبالغة تستحق ذلك كله ولا قريبا منه، فكل ما يقوله عنها

(١) الموشح للمرزبانى: ٧٩.

أنها نافذة ، ولولا الدم الذي تجيش به لاستطاع الناظر فيها أن يرى ما خلفها . ولا أدري ماذا في هذا القول من تهويل كاذب ، أو إسراف ممقوت ؟

إنها لم تكن طعنة المباكر المعجل ، يحذر بادرة القرن أو يغتنم غرته ، ولكنها طعنة الواثق المتمكن ، عرف عدوه ولم يعرفه عدوه ، فاستدرج له أو استدرجه هو إلى حتفه ، وكان كل شيء من حوله لا يمنعه أن يتهيأ للطعنة ويروى فيها ، وأن يمين مكانها من صاحبه ، والوقت الذي يسددها فيه . ولعله كان يخشى أن يتهم بما اتهموه به ، فلم يفته أن يصف تأهبه لها إذ يقول :

ملكت بها كفى فأنهرت فتقها

فهذا يعنى — كما لا يخفى — أنه كان هادئًا رابط الجأش ، يملك نفسه ، ويصرف أمره على ما يريد . وقد كان مع ذلك فتى مرجى ، وكان من قبل مغيظًا موتورًا .

فهل يتعاظمه في هذه الظروف ، ومع هذه الملابسات أن تجيء طعنته نافذة نجلاء ؟ وهل من الإنصاف إذا وصفها بالنفذ والاتساع إلى الحد الذي رسمه أن يؤخذ فيه بالتهكم والدعابة ؟

ويكثر الشعراء الفرسان من وصف طعناتهم والفخر بها ، ولكل في ذلك نمطه المتميز ونهجه المعتاد . فيقول زاهر أبو كرّام ، وكان نازل رجلا من يشكر يقال له تيم ، فظفر به زاهر وقتله :

لله تيم أى رمح طراد لاقى الحمام به ونصل جلاد

ومحشّ حرب مقدم متعرض موت غير معرد حياد[1]

(١) المحش : الشجاع . وأصل المحش : الحديدة تحش بها النار . أى تحرك . المعرد : الهارب .

كالليث لا يَثنيـــه عن إقدامه خوفُ الردى وقعاقعُ الإيعاد[1]

مَذِل بمهجته إذا ما كَذّبت خوفَ المنية نجدةُ الأنجاد[2]

ساقيته كأس الردى بأسنة ذلق مؤللة الشفار حـــداد[3]

فطعنته والخيل في رهج الوغى نجلاء تنضح مثل لون الجادى[4]

فكأنما كانت يدي من حتفه لمـــا انثنيت له على ميعـــاد

فهوى وجائشها يفور بمزبد من جوفه متتـــابع الإزباد[5]

وكلا الشاعرين كما ترون لا ينسى نفسه في حماسيته ، فهو يزكيها ويحمد بلاءها إلا أن ابن الخطيم يتحدث عن نفسه من جوانب شتى ، فهو يصفها بالشجاعة والقوة والسماحة وعرفان الجميل والجهر بالحقيقة وحسن الخلافة عن الآباء ، ويذكر أسباب الإيقاع بخصميه ، وأثر الظفر بهما في نفسه وفي نظره إلى الحياة . وهو يمضي إلى طيته قدما ، وفي طريق قاصدة وبأسلوب تشيع الكناية فيه ، ويغلب الإلف على مفرداته

أما زاهر فيتحدث عن نفسه من جانب واحد أو كالواحد ، فهو يصفها بالشجاعة والقوة ليس غير ولا يأخذ في ذلك على طريق مباشرة كأنه لا يقر الثناء على النفس والإعجاب بها صراحة وقصدا ، فجعل يمدح قرنه بالإقدام في الحرب وطول المرس بها ، وترك السامع يفهم وحده دلالة الظفر به والقضاء عليه ولم يفته أن يتحدث عن سلاحه ويذكر أنه حاد صقيل

(١) قعاقع الإيعاد : أصل القعقعة : صوت الشيء الصلب يصطك بمثله ، والمراد بوادر التهديد .

(٢) مذل : باذل سمح ، والفعل كنصر وعلم وكرم .

(٣) ذلق : ماضية ، جمع ذليق ، والفعل كفرح ، ونصر ، وكرم . مؤللة : محددة .

(٤) الرهج : الغبار . الجادى : الزعفران .

(٥) جائشها ، أي جائش الطعنة بمعنى السائل منها ، وهو الدم .

وأسلوبه كما رأيتم صريح فى نفسه ، ولكنه صرفه عن شخصه إلى شخص خصمه ، وورث استحقاق الحمد بالغلبة عليه يجىء تبعا ، ولكن من غير طريق الكناية فى التعبير . وهو ينوع المشتقات ، ويكثر اصطناعها فى عبارته ، كما فى قوله :

ومحش حرب مقدم متعرض ... للموت غير معرد حيّاد

ويقول عنترة فى معلقته

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هربا ولا مستسلم (١)

جادت له كفى بعاجل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقوم (٢)

برحيبة الفرغين يهدى جرسها ... بالليل معتس الذئاب الضرم (٣)

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم (٤)

فتركته جزر السباع ينشنه ... يقضمن حسن بنانه والمعصم (٥)

ومشك سابغة هتكت فروجها ... بالسيف عن حامى الحقيقة معلم (٦)

(١) المدجج : المستور بالسلاح ، وأصله من دججت السماء : أى غيمت ، والمدجج تفتح جيمه وتكسر على لفظ اسم المفعول واسم الفاعل ، ومثله فى ذلك : المخيس بضم الميم ، وهو السجن ، والمكاتب . الكماة ، جمع كمى ، وهو الشجاع الكمى فى سلاحه : أى المتغطى بالدرع والبيضة . لاممعن هربا ، الخ : يريد أنه لا يمعن فى فراره فيبعد ، ولايستسلم فيؤسر ، ولكنه مقاتل يراوغ فى القتال .

(٢) المثقف : المصلح المقوم . صدق : صلب ، لا يخون الطاعن به . الكعوب : عقد الأنابيب ، جمع كعب .

(٣) الفرغ : مخرج الماء من الدلو . الجرس : الصوت . المعتس : من اعتس بمعنى طاف بالليل . الضرم : الشديدة الجوع . جمع ضارم .

(٤) شككت ثيابه : انتظمت درعه أو بدنه . وقد يكون شككت بمعنى شققت . ويروى : شككت بالرمح الطويل إهابه .

(٥) جزر ، جمع جزرة ، وهى الشاة ، والناقة تذبح وتنحر . ينشنه : يتناولنه أكلا . والقضم : أكل اليابس . ويروى : ما بين قلة رأسه والمعصم .

(٦) المشك : الدرع شك بعضها إلى بعض . الحقيقة : ما يحق على الرجل أن يحميه . المعلم الذى يعلم نفسه بعلامة فى الحرب .

رَبِذٍ يداه بالقداح إذا شتا ... هتّاك غايات التجار ملوّم (١)

لما رآنى قد نزلت أريده ... أبدى نواجذه لغير تبسم (٢)

فطعنته بالرمح ثم علوته ... بمهند صافى الحديدة مخذم (٣)

عهدى به مدّ النهار كأنما ... خُضب البنان ورأسه بالعِظلم (٤)

بطل كأن ثيابه فى سرحة ... يُحذى نعال السّبت ليس بتوءم (٥)

وعنترة كما ترون يعدد الوصف وينوعه ، فيصف نفسه وفرسه وسلاحه ، ويصف طعنته وشدة فعلها ، ويصف قرنه حيا ، عليه الشكة والمهابة ، ويصفه ميتا ، يضرجه الدم وتتداعى إليه الذئاب . وهو إذ يصف عدوه لا يقصر الوصف على الشجاعة والقوة والإقدام ، وهى الخصال التى إذا اجتمعت فى قرنه كان له فخر منها إذا انتصر عليه ، ولكنه يصفه كما يعرفه فى شخصه ونفسه ، وفى حربه وسلمه . فهو فى الافتخار فردى وجماعى معا ، يفكر فى نفسه وقومه ، ويلم بما يعدد من أوصاف عدوه إلى جدواه وجدواهم من قتله .

وعنترة وقيس أقدر على التخييل وبعث الحياة فى الصور ؛ لأنهما يعرضانها كما

(١) الربذ : السريع الضرب بالقداح ، والفعل كفرح . يريد أنه حاذق فى القمار وذكر الشتاء لأن الجدب أكثر ما يكون فيه . غايات التجار : رايات الخمارين . وكانوا ينصبونها ليعرف مكانهم . ملوم : يكثر أن يلام على الإنفاق . يريد أنه يشترى كل ما عند الخمارين من خمر حتى يقلعوا راياتهم .

(٢) النواجذ : جمع ناجذ . وهو آخر الأضراس

(٣) مخذم : قاطع . ويروى هذا البيت بعد تاليه .

(٤) مد النهار : ارتفاعه . العظلم : نبت يختضب به . يقول : رأيته وقد ارتفع النهار بعد قتلى إياه كأنه خضب بنانه إلخ . .

(٥) السرحة : الشجرة العظيمة . وفى هنا بمعنى على . السبت : الجلد المدبوغ بالقرظ ومنه كانت تصنع نعال الملوك . ليس بتوءم : لم تحمل أمه معه فيكون ضعيفا .

تضطرب فى واقع الحياة وحقيقة الأمر ، ويعرضان معها الأشياء التى تحيط بها ، والأحداث التى تجرى من حولها . ونحن لهذا حين نسمع مثلا قول قيس :

يهون على أن ترد جراحهـــا عيون الأواسى إذ حمدت بلاءها

لانلبث أن نجد أنفسنا مع الجريح التعس ، والأواسى من حوله ، مقبلات عليه رفيقات به ، يردن أن يداوينه ويخففن من ألمه ، فإذا كشفن عن جرحه ، ورأين سعته ، ورأين الدم لا يزال ينضح منه ، لم يتمالكن أن يعرضن عنه وأن ترتد إليهن أبصارهن تقززا واستبشاعا .

ونحن كذلك حين نسمع قول عنترة :

برحيبة الفرغين يهدى جرسها بالليـــل معتس الذئاب الضرم

حتى نجد أنفسنا فى الفلاة مع الطعين الصريع ، لاتزال طعنته تجيش بالدم ، فإذا له فى غزارته وشدة اندفاقه خرير مسموع ، ثم يتغير المشهد ويتغير الجو من حوله ، فإذا نحن معه على هذه الحال أيضا ، وقد مضى النهار وأقبل الليل ، وجعلت الذئاب تنسل هنا وهناك ابتغاء القوت ، فما تكاد تدنو من مصرعه حتى تسمع جرس الدم ، فتتوارد عليه لا تخطئه ، ولا تلتوى بها السبيل إليه .

وعنترة كذلك يفتن فى المشتقات ويكثر منها فى أسلوبه ، قال :

جادت له كفى بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

فهو من هذه الناحية كأبى كرام ، لكنه أوضح منه معنى وأقرب منالا ، فليس يتكلف القارئ فى فهمه مثل ما يتكلف فى فهم صاحبه من التأمل والتروية ، وإن يكن من ذلك شىء فإنما يعرض لبعض أحوال البيئة وخصائص العصر ، وليس لتأليف العبارة أو اصطناع المفردات مدخل فى ذلك من قريب أو بعيد . ذلك بأن

عنترة لايجيء في عبارته بمثل تلك الفواصل الطويلة التي يجيء بها أبو تمام ، فتنفصل الكلمات المتلازمة ، وتتباعد ما بينها كما في قوله :

فكأنما كانت يدي من حتفة   لما اثنيت له على ميعاد

فلابد للقارىء في فهمه حينئذ أن يبحث عن الكلمة الأخرى التي فُصلت من قسيمتها ، وأن يقتحم إليها الفاصلة القائمة دونها أو يعرض عنها ويتجاهل وجودها إلى حين ، حتى يتهيأ له أن يردّ آخر الجملة على أولها ، فيلتئم الشمل ، ويلتقي الشتيتان ، وإذ ذاك يكمل الكلام ويتضح المراد .

صبٌّ مضيَّع

كان الصِّمَّة بن عبد الله شاعراً مقلا ، وحسبا عفيفاً ، نشأ في البادية بين قومه من بني قُشير ، وكان لجده قرة بن هبيرة صحبة بالرسول ووفادة عليه ، فشب الصِّمَّة على الإباء والشجاعة وعزة النفس . وكانت له ابنة عم يقال لها رَيّا ، وكانت الفتاة أديبة ذات ملاحة وظرف ، نشأت معه ، وصحبته في مدارج العمر ، وطالما التقيا فتذاكرا الأخبار وتطارحا الأشعار ، فأعجب الصمة بها ، ثم أحبها وأصفى لها الحب ، حتى أضناه الشوق ، وبرحت به الصبابة فخطبها إلى أبيها عسى أن يفوز بها فيفوز بغنية القلب وزينة الحياة

ولعله كان لا يشك أنه واصل إليها فظافر بها ، وما يمنعه منها أو يحول بينه وبينها ؟ أليس ابن عمها وفتى شجاعا شاعراً في قومها ؟ فإذا لم يكن هو كفأها المرجّى فمن عسى أن يكون ؟ لكن الأقدار لا تجري دائما على ما يشتهي الناس ، ولا وفق ما يقدرون أنها واقعة عليه . وقد كانت كذلك مع الصِّمَّة لسبب يسير ، ما كان ينبغي أن يكون على كل حال ، وما كان ينبغي إذا هو كان أن يحول بين الفتى والفتاة

لقد قبل والد الفتاة الخطبة ، وسمى لها مهراً جماً من الإبل لم يتفق الرواة على عدده ، فساق والده المهر إلى أخيه ينقص بعيراً ، فأبى أن يأخذه إلا كاملا وحلف على ما يقول ، وأبى والد الفتى أن يتمه وحلف كذلك على ما يقول . فاغتم الصِّمَّة ، وغاب الكمد عليه واليأس ، حتى ضاقت الأرض به ، وأصبح لا يطيق المقام في أهله ، فاحتمل راحلا إلى الشام ينشد السلوة والعزاء ، وأين منه السلوة والعزاء وقد فارق حبه وفارق معه قلبه ، فهو يعيش اليوم مقسم النفس عازب اللب

وزاده إلى ما به من ذلك أن قومه فرطوا فيه وأضاعوه مرتين ، لا يشفقون عليه ولا يرثون لشقوته . فرطوا فيه وأضاعوه مرة حين خلوا بينه وبين الرحيل حين أزمع عليه ، لا يردونه عنه ، ولا يفتدونه منه بيسير ! وفرطوا فيه وأضاعوه مرة أخرى حين خلوا بينه وبين المقام فى دار الغربة ، لا يعتبونه ، ولا يدعونه أن يعود .

وأبت عليه همته وحياؤه وعزة نفسه أن يرجع إليهم غير مطلوب ولا مرغوب فيه . وهكذا أقام على هم ناصب ، وشوق دائم ، لا تزيده الأيام إلا اشتعالا ..

وهو فى حماسيته الآتية يلوم نفسه أن تحن إلى ريى ، وينكر عليها أن تزين له فراقها ، وتدعوه طواعية واختيارا إلى الخروج من الوطن ، فلما انقاد لها وأصبح غريباً نائى المزار تخلت عنه ، وجعلت تحن إلى الماضى وتتفجع عليه ، وتود لو رجعت إلى العيش فيه ، ثم يصف خروجه من نجد ، ويصور حبه له وإعجابه به ، ويذكر عشياته فيه ويأسه من أن تعود إليه . وهو فى كل ذلك حزين عميق الحزن ، مؤثر بليغ التأثير . قال :

حننتَ إلى ريّى ونفسُك باعدت … مزارك من ريى و شعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعاً … وتجزعَ أن داعى الصبابة أسمعا
قفا ودّعا نجداً ومن حل بالحمى … وقل لنجد عندنا أن يودّعا (١)
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا … وما أحسن المصطافَ والمتربعا (٢)
وليست عشيات الحمى برواجع … عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا (٣)

(١) الحمى : موضع فيه ماء وكلأ يمنع منه الناس ، أما المكان الذى يباح ولا يحمى فيقال له : البهرج

(٢) هذا البيت ثابت فى رواية التبريزى وساقط من رواية المرزوقى

(٣) ألم فى هذا البيت بقول الآخر

فقلت لها إن البكاء لراحة … به يشتفى من ظن أن لا تلاقيا

وفى شرح المرزوقى : فقلت له : إن البكاء ...

ولما رأيت البِشر أعرض دوننا ... وحالت بنات الشوق يحنن نُزّعا (١)

بكت عينيَ اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا (٢)

تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني ... وُجعت من الإصغاء لِيتاً وأخدعا (٣)

وأذكر أيام الحِمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا

والحماسية على ما ترون من رقة الصبابة وشدة اللوعة . ولست أدرى أكان ممكنا أن يقول الشاعر مثلها أو قريباً منها لو لم يتماسر والده وعمه ، ولم يركب كلاهما رأسه ويستنكف أن ينزل على مشيئة صاحبه ؟ هيهات ، فإنما هي لهفة مشتاق ، وصيحة معذب ، ودمعة باكٍ حزين .

ولو أنه أدرك أمنيته ، فطاب بها نفساً ، ونعم بالا ، وسعد عيشاً لجاءت حماسيته حكاية لنفسه ، وترجيماً لعواطفه . وأغلب الظن أنها لا تلقى حينئذ مثل ما تلقى هذه الحماسية من شيوع الرواية وكثرة التداول فالتعس والحرمان أكثر فى الحياة من السعادة والوجدان ، أو هكذا يتصورها الإنسان ، ثم لا يحاول أن يعدل من تصوره ويصلح من حظه .

ولهذا كان الذين يرون أنفسهم فى الفن الحزين أكثر من الذين يرونها

(١) البشر : جبل فى أطراف نجد من جهة الشام . أعرض : أظهر عرضه بيننا . حالت : تحولت عن حالها من السكون إلى التحرك . بنات الشوق : دواعى الصبابة وأسبابها ، كما قال المجنون :

يضم إلى الليل أطفال حبها ... كما ضم أزرار القميص البنائق

وبنات الدهر : الشدائد ، وبنات الليل وبنات الصدر : الهموم ، وبنات الأرض : الأنهار الصغيرة . نزع جمع نازعة بمعنى مشتاقة ، من نزع إلى أهله ينزع بالكسر .

(٢) بكت عينه اليسرى أولا ؛ لأنها كانت صحيحة ، أما اليمنى فلم تبك إلا بعد ملالام اليسرى ؛ لأنها كانت عوراء ، والعين العوراء لاتدمع . ورواية المرزوقى : بكت عينى اليمنى .

(٣) الليت : صفحة العنق ، وأصل العبارة وجعى الليت بكسر الجيم . الإصغاء مصدر أصغى إليه ، أى مال بسمعه إليه . والأخدع : عرق فى صفحة العنق .

في الفن السعيد ، ولابد للحياة من النوعين على كل حال ، فالتنوع سنة الوجود ، وهو الذى ينفى عن النفس السأم والإعراض ، ويبعث فيها الرغبة والإقبال ، وإذا كانت النفس واجدة فى فن التعس أسوة وعزاء ، فإنها واجدة فى فن الهناء تطلعاً وشوقاً . وهكذا لابد للحياة أن تسير ، ولا بد أن تفيد فى سيرها من شقاء الأشقياء وسعادة السعداء ، وهكذا أيضاً قد يَشّقق الشر فيخرج منه الخير ، وقد ينتج الشقاء فيكون فى نتاجه متاع للناس .

وبعد ، فهذه الحماسية كما ترون زاخرة بالعواطف الكريمة ، والأحاسيس الشريفة التى تجيش بها النفس الشاعرة الأبية فى مثل هذه المأساة : من الحنين والشوق ، إلى الأنفة والعزوف ، إلى السماحة والإغضاء ، إلى الوفاء والإعجاب إلى اللوعة والحسرة ، إلى اليأس والإشفاق . وأكرم عواطفها ، وأشدها استدراراً للعطف والرقة ، وإثارة للإكبار والإعجاب هذه السماحة البادية ، بل الشجاعة الماثلة فى موقف يغلب أن يتوارى فيه العقل ، ويسيطر القلب ، ويتولد الضغن ، ويطيب الاتهام وإلقاء التبعات على الناس بالحق وبالباطل .

نعم ، فهذا الفتى قد أضاعه أبوه وعمه ، بل أضاعته العشيرة كلها ، وباعوه جميعاً — فيما تقول الرواية — بيع السماح ببعير واحد ، فأبت عليه النخوة وعزة النفس أن يقيم معهم ، ويظل يغدو بينهم ويروح . فلما سكت عنه الغضب ، وعادت إليه السكينة والهدوء ، وأخذت تتبدى له حقائق الأمور — رأى المحنة هائلة قاسية لا قبل له بها ولا قدرة له على حملها

ولو شاء لأخذ أصحابها بذنبهم ، فلامهم ، أو عتب عليهم ، دون أن يلحقه من ذلك ذم ، أو يكون عليه بأس فيه ، ولكنه كما علمتم أبى أن يفعل ، وتقدم حراً كريماً وسيداً شجاعاً ، فحمل التبعة كلها ، وأفرد نفسه باللوم فيها ، أن رأت له الرأى وأشارت به عليه ، ثم لم تلبث أن تنكرت له ، وهمت بالعدول عنه .

ويعول الشاعر في فنه هنا على صدق التعبير، واستحضار المشاهد أكثر مما يعول على إعمال الخيال، وإزجاء الصور، فما نكاد نسمعه يقول:

حننتَ إلى ريّا ونفسك باعدت مزارك من ريّا وشعباكما معا

حتى نقبل عليه ونمضي معه، نريد أن نبلو خبره، ولكنه لا يتابع القول من الوجه الذي أخذ فيه، بل يميل به إلى وجه آخر جديد، كأنه وقد بدأ القصة وجمع لها أشتات نفسه — لن يستطيع أن يتمها ولا أن يمن فيها، لج به الشوق، وألحت عليه الذكرى، فإذا هو يطوى الأرض ويرجع الزمن، حتى يعود إلى نجد حيث كان مع صاحبي رحلته، يدعوهما أن يقفا معه، ويعيناه على أمره، ويسعداه بالمشاركة فيه.

أو كأنه وقد بدأ القصة بما بدأ — تبين أنه لم يأخذ من أولها بل من آخرها، غلبه التدله، وذهب بفكره الهم، حتى ما يعرف كيف يبدأ وكيف ينتهى، فقفز بخياله هذه القفزة الهائلة، لا تعرف للأرض حدوداً ولا للزمن قانوناً. فإذا هو في نجد حيث كان مع صاحبي رحلة يقول لهما:

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودّعا

ويمضي في القصة على ما رأيتم، حتى إذا أتمها، أو أتم ما أراد أن يقول منها، قفز بنا مرة أخرى، عوداً إلى مقامه في الشام ليرينا كيف يعيش هناك. فإذا هو يعيش على الذكرى والوفاء لها، وإذا هو يلقى منها أشد ما يلقى المحب الوفى الأمين.

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا

وخياله على كل حال سهل يسير، لا يبعد من الحقيقة كثيراً، بل إنه ليوشك أن يكونها أو أن يكون أشبه الأخيلة بها. استمع لقوله:

فما حسن أن تأتى الأمر طائعاً   وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا

فهو أحفل أبياته بالمجاز ، وأدخلها فى وادى الخيال .

أما موسيقاها فهادئة النغم ، رفيقة الإيقاع ، مرسلة المقاطع ، كأنها تحكى الشاعر وهو يصطنع السكينة والتماسك ، ويتكلف الاطمئنان إلى الحاضر واليأس من الماضى ، ثم تحكيه وهو يساير الذكرى ويمضى بخياله إلى وراء . أو كأنها تجرى على وفاق مع الأحداث الواقعة ، والمشاهد المزجاة فيما تبعث فى النفس من جلال ، وتحملها عليه من خشوع ، وفيما تأخذها به من الإعجاب ، وتدعوها إليه من الانبعاث .

أخو الحزم

كان ثابت بن جابر الملقب بتأبط شراً(١) شاعراً متصعلكاً ، وعدّاء سابقاً ، يتضح شعره بمعاني القوة ونوازع الفتوة ، ويكثر فيه الفخر بركوب الأخطار واحتمال الصعاب . أما أسلوبه فتغلب الفخامة عليه ، وتتردد الألفاظ الغريبة فيه . وكان له في التصعلك والعدو شهرة بعيدة ونوادر عجيبة ، كأنها الأساطير والخرافات ، فكان فيما يقال ينطلق وراء الظبي يريد أن يصيده فلا يفوته . ومن قوله يصف سرعته :

لا شيء أسرع مني ليس ذا عُذَر وذا جناح بجنب الرَّيد خفاق(٢)

وكان جريئاً مقداماً ، صاحب غارات ظافرة ، ومخاطرات يائسة ، طالما روعت الجزيرة وأرّقت أهلها بما كانت تسلبهم من مال ومتاع ، فتناذروه ، وأرصدوا له ، عسى أن يتخلصوا منه ، فتهدأ القلوب الواجفة ، وتثلج النفوس الواجدة .

وربما ظفر به بعض طالبيه ، فحسبوا أنه غير ناج منهم ، ثم لا يلبث أن يخلف حسبانهم ، فيفلت منهم ناجيا ، وينطلق لوجهه سابقاً ، لا يخاف دركا ولا يخشى ، يسعده في ذلك بديهة حاضرة ، وقدرة عجيبة على الخداع وإعمال الحيلة ، إلى سرعته الفائقة ، وخبرته الواسعة بفجاج الصحراء ومناقع المياه .

وقد كان لبني لحيان عنده ثأر ، فجعلوا يطلبونه ويتحينون غفلته ، حتى رأوه

(١) أشهر ما يقال في أسباب تلقيبه بذلك أنه تأبط يوما سيفا وخرج ، فسئلت عنه أمه : أين هو ؟ فقالت : لا أدري ، تأبط شراً وخرج .

(٢) العذر : جمع عذرة ، وهي ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس . الريد : الحرف الناتىء من الجبل .

يوماً يصعد فى جبل يريد أن يجنى منه العسل ، ولم يكن للجبل إلا طريق واحدة ، فأخذها عليه أعداؤه ، ودعوه إلى واحدة من اثنتين : الأسر ، أو القتل ، ولكنه أبى الخطتين جميعاً ، ولجأ إلى الحيلة فوجد عندها ما يريد ، إذ هدته إلى وجه لم يكن يخطر لهم ببال ، فأراق العسل على جانب آخر من الجبل غير الذى قعد له الرصد قبالته ، وشد إلى صدره قربة من القرب التى كانت معه ، ثم انزلق على العسل حتى خالط السهل ، لا يجد من مس الصخر إلا قليلا ، ثم انطلق كالسهم ، فرجع إلى قومه راضياً ، وخلف أعداءه من ورائه يتلاومون .

وهو فى حماسيته الآتية يروى لنا هذه القصة فيقول :

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جِده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر (١)
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا ... به الخطبُ إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قَريع الدهر ما عاش حُوّل ... إذا سُد منه منخر جاش مَنْخِر (٢)
أقول للحيان وقد صفِرت لهم ... وطابى ويومى ضيق الحجر مُعْوِر (٣)

(١) جد جده : صار فى حال توجب أن يجد جده ، أى يزيد من جده جهد طاقته ، فهو مثل قولهم : استحق نحوها . أضاع : ضيع ، أو وجد أمره ضائعا ، كأحمدت فلانا ، وأكرمته أو أبخلته ، بمعنى صادفته محمودا ، وكريما ، أو بخيلا .

(٢) قريع الدهر : وصف من قرعه الدهر ، أى اختاره بالقرعة ، فيكون المعنى أنه صفى الدهر ومختاره ، وإما من قرعه الدهر بالنوائب ، أى أصابه بها ، فيكون المعنى أن الدهر امتحنه فاكتسب حنكة وتجربة . وقد يكون قريع الدهر بمعنى المقارع أو الغالب . حول : شديد الاحتيال . جاش : تحرك وهاج . إذا سد منه منخر الخ : تعبير تمثيلى يصور حال المكروب من ذوى الحيلة والحزم .

(٣) صفر ، من باب طرب : خلا ، فهو صفر ككتف ، وصفر كحسن . وفى الحديث إن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله . الوطاب : جمع وطب بالفتح ، وهو سقاء اللبن . وصفرت لهم وطابى : نفدت قوتى من الجهد لإحباط كيدهم حتى كدت أسقط إعياء ، أو خلت الوطاب من عسلها بعد ما صبه على الجبل ، أو صفرت وطاب ودى كما قال:

بها خطتا إما إسار ومنة ... وإما دم والقتل بالحر أجدر (١)
وأخرى أصادى النفس عنها وإنها ... لمورد حزم إن فعلت ومصدر (٢)
فرشت لها صدرى فزل عن الصفا ... به جؤجؤ عبل ومتن مخصر (٣)
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا ... به كدحة والموت خزيان ينظر (٤)
فأبت إلى فهم ولم أك آيبا ... وكم مثلها فارقتها وهى تصفر (٥)

ويقسم الشاعر حماسيته إلى مقدمة وموضوع ونتيجة ، وقد جعل المقدمة ثلاثة أبيات ، مهد بها للموضوع وأشار فيها إلى فكرته ، فإذا هى كبراعة الاستهلال عند أصحاب البديع . فما من أحد يسمعه يقول :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر

ثم يمضى معه حتى يسمع قوله : إذا سد منه منخر جاش منخر — إلا يعلم أنه

وإذ صفرت عياب الود منكم ... ولم يك بيننا فيها زمام

كأنه تبين أنهم لا يبقون عليه ، ولا يرعون فيه ذماما . الحجر : الناحية ، ورواية التبريزى الجحر بجيم مضمومة فحاء . معور ، وصف من أعور الفارس ، أى بدا فيه موضع خلل للضرب ، يريد بذلك أن يمثل ضيق منفذه وإحداق الخطر به .

(١) خطتا ، أصلها خطتان ، حذف نونها . الإسار : الأسر

(٢) أصادى : أعارض وأرد .

(٣) زل : سقط وزلق . الصفا ، جمع صفاة ، وهى الصخرة الملساء . جؤجؤ : صدر . عبل : ضخم ، والفعل كظرف . المتن : ما جاور الصلب عن يمين أو شمال من عصب ولحم ، وللظهر متنان . مخصر : دقيق ضامر .

(٤) يكدح : يخدش . خزيان : مستح ، والفعل خزى بالكسر خزاية بالفتح .

(٥) فهم : قبيلة الشاعر . وهو فهم بن عمرو بن قيس عيلان . ولم أك آيبا ، أى كدت لا أرجع . أو المعنى لم أك راجعا فيما كانوا يقدرون . ويروى : ولم آل آيبا . أى لم أقصر فى التماس أسباب الإياب . ويروى : وما كدت آيبا . وكم مثلها الخ . يريد : وكم شدة كهذه خلصت منها وخليتها تصفر مما أرصد لى من أسباب الهلاك .

آخذ به إلى قصة من قصص الأهوال العظيمة والأخطار الجسيمة ، لا يجدى في النجاة منها غير الحيلة الفائقة ، والتدبير المحكم السديد .

وهو إذ يتحدث فى المقدمة عن العاجز الذى لا غناء فيه ولا حيلة عنده يجمل الحديث ، فيجعله فى بيت واحد ، ولا كذلك إذ يتحدث عن أخى الحزم الذى يعد للخطب كفاءه من اليقظة والحيلة ، فيجعل الحديث عنه فى بيتين ، كأنه لا يرى العاجز حقيقاً بفضل عناية فى الحديث ، زراية عليه وإصغاراً لشأنه ، أو كأنه يرى أن خبره متعالم مشهور ، لا حاجة بالناس إلى ذكره ولا إطالة القول فيه ؛ لأن المقصرين أكثر من الكفاة ، لا تكاد تخلو منهم جماعة ، أو تخفى من أمرهم خافية .

وأما الموضوع فقد جمع له خمسة أبيات ، وهى على وجازة عددها تجمع وقائع القصة ، وتحسن الإبانة عنها ؛ لأنه آثر فيها دلالة الإشارة والاكتفاء على دلالة التعبير والاستيعاب . فلم يذكر كثرة لحيان عنده ، ولا طلبهم إياه وإرصادهم له ، ولم يذكر مقالته للحيان ، أو مقالته لنفسه يحكى لها ما ينوون أن يصنعوا به إذا هم أخذوه .

فما يكون الأسر والمن ، أو القتل وسفك الدم إلا حين يكون الوتر والعداوة ، ثم الطلب والنجح فيه ، وما حاجته إلى ذكر الجبل والتصعيد فيه مع ذكر الصدر وفرشه ، وذكر الصفا والانزلاق عليه ، وذكر السهل ومخالطته ؟ وهل يكون ذلك كله إلا لمن كان على جبل سدت الطريق الواردة إليه والصادرة عنه ؟ .

على أنه لا يأخذ هذا المأخذ من البيان حين يحدث عن نفسه ، ويصف عملها فى الأحداث النازلة به . ألا تراه حين يقول مقالته للحيان أو مقالة لحيان لنفسه كيف يعنى أولا بوصف يومه وما يتراءى فيه من هول وخطر ، ويعنى ثانيا بذكر رأيه فى الخطتين وأنه يؤثر القتل على الأسر والمن ، كدأب الحر الكريم حين يعرض لمثل ما تعرض هو له ، ويعنى ثالثاً بذكر الخطة الثالثة التى هدى إليها

دون أن تخطر لأعدائه فى بال ، ويعنى رابعاً توصف جسمه فيما يلابس الصخر وهو زلق عنه ، ويعنى آخر الأمر بذكر نجاته من الموت وسلامة جسمه من قسوة الصخر

وما أراه فى الحالين إلا راشداً موفقا ، يصطنع لكل مقام ما يلائمه من أساليب التعبير والبيان ، فهو لم ينظم حماسيته لمجرد تسجيل الحوادث وتعديد الوقائع ، ولم ينظمها لتزجية الفراغ ونفى الملل عن الناس ، ولكنه نظمها للفخر بنفسه وامتداح خصاله . فالحديث عن الأحداث والوقائع إذا لا يعدو أن يكون حديثا عن الوسيلة والتمهيد ليس غير .

فلا عليه إذا أن يغنى فى الحديث عنها ببعض القول عن بعض ، وأن يغنى فيما يتحدث عنه بدلالة الالتزام والإلماع عن القصد والتصريح ؛ ليخلى المرء وخياله يذهب معه حيثما ذهب ، ويلون له الصور على ما يتفق مع مزاجه وطبعه ، فإنما ذلك كله حواش وذيول ليست من الصميم ولا الجوهر فى شيء .

أما حين يكون القول عن نفسه ومواقفها من الخطوب فالأمر مختلف أيما اختلاف ، والقارىء هنا لا ينبغى أن يترك لخياله وتصوره ولا لفهمه وتقديره ، ولكن يجب أن يقال له كل شيء ليعرف الحقيقة على وجهها ، أو كما يريدها هو أن تكون .

وقد اقتضاه هذا الحرص على إبانة نفسه ، وتحديد مواقفه ، وتصوير ما يتصل بموضوعه من الظروف والملابسات ، أن يكثر الجمل التكميلية والاعتراضية ؛ ابتغاء الدقة فى الإبانة ، وتحريا للقصد والغاية ، حتى ما يكاد يخلو من هذه الجمل بيت . وإليك مثلا قوله :

أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابى ويومى ضيق الحجر معور ...

وتتردد فى عبارته بعد ذلك ألوان من الكنايات الحاكية وغير الحاكية ، كقوله :

إذا سد منه منخر جاش منخر ، وصفرت لهم وطابى ، ويومى ضيق الحجر معور .

فتوة وشباب

تزوج أبو كبير الهذلي[1] أم تأبط شراً ، فلم ينكر الغلام زواجهما ، ولا رأى أن على أحدهما منه بأساً ؛ لأنه كان يومئذ حدثاً ، فلما صار فتى أنكر أن يكون هذا الرجل الأجنبي خليفة أبيه في بيته ، وواليا عنه في أسرته ، وتحول الإنكار كراهة وضغينة ، فتربصاً وتدبيراً .

وعرف الرجل كل مايدور في رأس الفتى من خواطر ، وكل ما يجيش في نفسه من أحاسيس ، فأوجس منه خيفة ، ورأى أن يهجر أمه ويقطع صلته بها ؛ اتقاء مكره وشره .

ثم عاد فرأى أن يحتال للفتك به ، كأنما أنكر أن يخافه ويفر منه ؛ فيقول الناس عنه في ذلك بالحق وبالباطل ، فدعاه للغزو ، فلبى الفتى دعوته ؛ وخرج بلا زاد ، فقصد به أبو كبير بعض عدوه ، فلما رأى نارهم قال للفتى وقد بلغ منه الجوع : لو ذهبت إلى هذه النار فالتمست لنا شيئاً من طعام ، فانطلق الفتى فإذا على النار لصان فاتكان ، فلما دنا منهما وثبا إليه ، فكر ساعياً ، فاشتد الرجلان في أثره ، وكان أحدهما أدنى إليه من صاحبه ، فعطف الفتى عليه فقتله ، وعطف على الآخر فقتله أيضاً ، وأتى النار فأخذ الطعام ورجع إلى أبي كبير فقص عليه القصة ، فارتاع الرجل وأهمته نفسه .

ومضيا في غزاتهما فأصابا إبلا ، وما زال أبو كبير على نية الخلاص منه ، فاقترح أن ينام كلاهما نصف الليل ويحرس الآخر صاحبه ، فقبل الفتى ورد بوعده .

(١) اسمه عامر بن حليس ، أحد بني سعد بن هذيل . وهو صحابي اشتهر بكنيته .

ينام أبو كبير ويحرسه الفتى . أما أبو كبير فكان ينام إذا نام الفتى أيضا . ولبثا على ذلك ثلاث ليال ، فلما كانت الرابعة ظن أبو كبير أن سيثقل الفتى من ليلته ، فتكون الفرصة التي يرتقبها لاغتياله .

ونام أبو كبير من أول الليل كعادته ؛ وحرسه الفتى كما كان يصنع ، فلما نام الفتى نبذ أبو كبير حصاة نحوه ، فهب الفتى قائماً يسأل صاحبه ما هذا ؟ قال الرجل : لا أدري ، ولكنه شيء سمعته من ناحية الإبل ، فمضى وعسّ فلم ير شيئاً ، وعاد فنام ، فعاد أبو كبير إلى مثل ما فعل ؛ ولكن بحصاة أصغر ، وعاد الفتى إلى يقظته وعسّه ، فلما كانت الثالثة ولم ير شيئاً كذلك من جانب الإبل قال للرجل : والله لئن عدت أسمع شيئاً بعد هذا لأقتلنك . قال أبو كبير : فبت والله أحرسه ؛ مخافة أن يتحرك شيء من الإبل فيقتلني .

ولما رجعا آلى أبو كبير ألا يدخل على أم تأبط شراً أبداً . وهو في هذه الحماسية يصف الفتى كما رآه وعرفه . قال :

ولقد سريت على الظلام بمغشم ... جلد من الفتيان غير مثقّل (١)
ممن حملن به وهن عواقد ... حُبُكَ النطاق فشب غير مهبّل (٢)

(١) المغشم : الشجاع يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء . وهو في الأصل من غشم الحاطب كضرب ، أي احتطب ليلا فقطع كل ما قدر عليه بلا نظر ولا فكر . ومن غشم بمعنى ظلم . غير مثقل : خفيف سريع .

(٢) ممن حملن به : من الفتيان الذين حملت بهم أمهاتهم ، ويروى ماحملن به ، أي من الحمل الذي حملت به الأمهات ... الحبك ، جمع حبكة بالضم والتسكين ، وهي الحبل يشد به على الوسط ، وهي أيضا الحجزة ، أي موضع التكة من السراويل ، أو معقد الإزار . النطاق : شقة تلبسها المرأة ، وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل إلى الأرض ، والأسفل ينجر على الأرض ، ليس له حجزة ولا نيفق (هو من السراويل الموضع المتسع منه) ولا ساقان . غير مهبل : غير مدعو عليه بالهبل . أي الثكل ، هبلته أمه ، كفرح : ثكلته .

ومبرّأً من كلّ غُبّرِ حيضةٍ ... وفسادِ مرضعةٍ وداءٍ مُغيلِ (١)

حملتْ به في ليلةٍ مزءودةٍ ... كَرْهاً وعَقْدُ نطاقِها لم يُحلَلِ (٢)

فأتتْ به حُوشَ الفؤادِ مبطّناً ... سُهُداً إذا ما نامَ ليلُ الهَوْجَلِ (٣)

وإذا نبذتَ له الحصاةَ رأيتَه ... ينزو لوقعتِها طُمورَ الأخْيَلِ (٤)

وإذا يهبُّ من المنامِ رأيتَه ... كرُتوبِ كعبِ الساقِ ليس بزُمَّلِ (٥)

ما إن يمسُّ الأرضَ إلا منكبٌ ... منه وحرفُ الساقِ طيَّ المِحْمَلِ (٦)

وإذا رميتَ به الفِجاجَ رأيتَه ... يهوي مخارمَها هُويَّ الأجدلِ (٧)

وإذا نظرتَ إلى أسرّةِ وجهِه ... برقتْ كبرقِ العارضِ المتهلّلِ (٨)

---

(١) مبرأ: يروى بالجر عطفا على جملة، وبالنصب عطفا على ... الغبر: غبر الشيء بقيته، ويطلق على بقية دم الحيض، وبقية اللبن في الضرع. المغيل: وهو من أغيلت المرأة ولدها، أي أرضعته وهي حامل، أو وزوجها يلامسها. ويسمى هذا اللبن الغيل بفتح فسكون، والاسم الغيلة بالكسرة. ومنه الحديث: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكرت أن فارس والروم يفعلونه، فلا يضرهم شيئاً. ويروى: وداء معضل.

(٢) مزءودة: مذعورة. والنطاق ك...

(٣) حوش الفؤاد: فؤاده مثل الوحش. المبطن: الضامر البطن. السهد: القليل النوم. الهوجل: الثقيل البطيء.

(٤) الطمور: الوثب، والفعل كنصر. الأخيل: طائر مشئوم، أو الصقر، وهو طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير. ويروى: رأيته فزعا لوقعها.

(٥) الرتوب: الثبات، والفعل كدخل. الزمل: الضعيف الجبان، الرذل في ... ويجوز ... في حرب.

(٦) المنكب: مجمع عظم العضد والكتف. المحمل: علاقة السيف، أي السير الذي يعلق به.

(٧) يهوي مخارمها: ينقض في مخارمها. والمخارم جمع مخرم كمجلس، وهو من ... ومن ذلك ... الأجدل: الصقر.

(٨) أسرة الوجه: خطوطه، جمع سرار كهلال. العارض: السحاب المعترض في الأفق. المتهلل: المتلألئ.

صعب الكريهة لا يرام جنابه ... ماضي العزيمة كالحسام المقصل (١)

يحمي الصحاب إذا تكون عظيمة ... وإذا هم نزلوا فمأوى العيل (٢)

ويمكن أن تعد هذه الحماسية من نصوص تاريخ العرب ، بما تروى من معتقداتها ، وحقائق الحياة الاجتماعية عندها .

فهي تذكر أن القوم على بداوتهم وغلبة الفطرة عليهم كانوا يعنون بالنسل ، وينزعون في إنجابه إلى مثال عندهم منشود .

وتذكر أن خير الحمل ما يكون والمرأة بارئة من بقايا الحيض ؛ ومن قولهم في ذلك : « إذا حملت المرأة عند الطهر ، أول الشهر ، عند طلوع الفجر ، ثم أذكرت جاءت بما لا يطاق » . ويجمع شاعرهم هذه المعاني إذ يقول :

لقحت في الهلال عن قبل الطهر ... وقد لاح للصباح بشير

وتذكر أن الطفل يتأثر بمرضعته ، ويأخذ ما يكون فيها من صلاح وفساد ، وأن لبن الحامل يؤذيه ولا يحقق المرجو من نجابته .

وتذكر أن ملامسة المرأة غير راغبة ولا متأهبة من أسباب نجابة الولد ، ولذا كان الرجل يغضب زوجه عامداً ، كأنه يريد أن يشغل ذهنها ، ويخرج منه ما عسى أن يكون لديها من نوازع الجنس ، ثم يعجلها على حالها تلك ؛ ليجيء الولد نازعاً إليه ، وآخذاً عنه أكثر من نزوعه إليها ، وأخذه عنها . ويقول شاعرهم في ذلك :

تسنمتها غضبى فجاء مسهدا ... وأنفع أولاد الرجال المسهد

ثم إن هذه الحماسية إذ تصف تأبط شراً على هذا النحو لا تصفه وحده ،

(١) الكريهة : الحرب . المقصل : القطاع ، فصل من باب ضرب

(٢) العيل : الفقراء ، جمع عائل .

ولكن تصف مثالا عاليًا من أمثلة الشباب كما يرتضيه المجتمع ، ويتمناه الآباء إذ ذاك . والصفات التي تذكرها له هي جملة الصفات التي نراها في الشاب الرياضي اليوم، إذ ينشأ في الرياضة ، ويطيل التمرس بها، حتى تصبه في قالبها، وتطبعه بطابعها . فتذكر أنه في جسمه ندب سريع ، يتنزى خفة ونشاطا ، مكتنز اللحم ، عريض الصدر ، ضامر البطن ، مشرق الوجه . وتذكر أنه في نفسه صلب جليد ، وماض جسور ، شديد البأس ، منيع الجناب ، يغيث الملهوف ، ويقرى الضيف .

ويتردد ذكر هذه الصفات وأمثالها في شعرهم ، فيقول دُرَيد بن الصِّمَّة في أخيه عبد الله :

فإن يك عبـــد الله خلّى مكانه ... فما كان وقّافًا ولا طائش اليد (١)

كَمِيش الإزار خارج نصف ساقه ... بعيد من الآفات طلّاع أنجُـد (٢)

قليـــل التشكي للمصيبات حافظ ... من اليوم أعقابَ الأحاديث في غد (٣)

تراه خَميص البطن والزاد حاضر ... عتيد ويغدو في القميص المقدَّد (٤)

وإن مسه الإقواء والجهـــد زاده ... سماحًا وإتلافًا لما كان في اليد (٥)

ويقول تأبط شرا في ابن عم له :

قليـــل التشكي للهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

(١) وقافا : هيابة .

(٢) الكميش : الرجل السريع ، والفعل ككرم ، وكميش الإزار مجاز كخفيف الحجزة ، ونقى الجيب . خارج نصف ساقه : مشمر للأمور . طلاع أنجد : طلاب لمعالى الأمور .

(٣) قليل التشكي : لا يشكي ، فقليل هنا تفيد النفي ، كالتي في قوله تعالى : فقليلا مايؤمنون . ومثلها قل في نحو قولهم : قل رجل يقول ذلك . حافظ من اليوم الخ : بصير في يومه بما يتعقب أفعاله من كلام الناس ، فيعمل ما يحسن ، ويجتنب ما يقبح .

(٤) عتيد : حاضر مهيأ ، والفعل ككرم، يصفه في البيت بالإيثار .

(٥) الإقواء : الفقر .

يظل بموماة ويمسي بقفرها ... جحيشا ويعروري ظهور المهالك (١)

ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي ... بمنخرق من شده المتدارك (٢)

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئ من قلب شيحان فاتك (٣)

ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... إلى سلة من حد أخلق صائك (٤)

إذا هزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك

ويأبى أبو كبير إذ يحدث عن فتاه إلا أن يحصر الحديث عنه آخذا طرفي نشأته ، من لدن أزيدت أمه عليه إلى أن صار فتى صعبا . وإذن لقد أدرك هذا البدوي الشاعر بفطرته الصافية ، ونظرته الصادقة ، وتجربته الناجحة أن الظروف والملابسات التي تكتنف النطفة البشرية في تكونها وعلوقها تؤثر في خلقها وطبيعتها ، صغيرة كانت أو كبيرة ، وظاهرة أو باطنة .

وكأن الرجل حين نوى أن يرسل في التاريخ صورة ، لفتاه رأى أن يفرعها إلى العوامل والأسباب التي تشاركت في صنعها ، وتلوين منازعها ، وتمييز سماتها ...

(١) الموماة : المفازة لا ماء فيها . الجحيش : المتفرد . يعروري : يركب . وأصله من قولهم : اعروريت الفرس إذا ركبته عريا (بضم فسكون) ، أي بلا سرج .

(٢) وفد الريح : وافدها ، أي سابقها ومسرعها . ينتحي : يتجه ويقصد . المنخرق : العدو المنخرق ، أي الواسع السريع . الشد : العدو .

(٣) الخوص : التضييق بين شيئين ، والخياطة . ومنه قيل : [illegible] . ويروى : إذا خاط عينيه ، والمراد إذا مس النوم عينيه خفيفا رقيقا . يصفه بخفة النوم وعدم الاستغراق فيه . الشيحان : الحازم الحذر .

(٤) ربيئة قلبه : طليعته التي تحرسه المهالك . والفعل ربأ كمنع . الأخلق : الأملس المصمت . صائك : من صاك به الدم ، أي لزق . ويروى :

إذا صممت أولى العدى صدره ... إلى سلة من حد أخلق باتك .

العدى . الكمي : جماعة القوم يعدون القتال . الباتك : القاطع . ومعنى إلى سلة من حد أخلق : إلى سلة من سلات حد إلخ .

حتى لا يؤخذ فى قوله عنه ، وتصويره إياه بظنة متظنن ، أو ريبة مستريب

وهو فى وصفه له يراوح بين السرد والتخييل ، لكنه لا يلتزم فى السرد نمطاً واحداً ، فحيناً يجمله خالصاً متداركا كما فى قوله :

ولقد سريت على الظلام بمغشم   جلد من الفتيان غير مثقل

وحيناً يقرنه إلى قيود ؛ أو يقيده بتشابيه تتم الوصف وتبين مداه ، كما فى قوله :

يحمى الصحاب إذا تكون عظيمة   وإذا هم نزلوا فمأوى العيل

وهو فى تخييله بدوى قح ؛ يجىء بالحصاة ، والأخيل ، ومخارم الجبال ، ومجاج الصحراء ، وحمالة السيف ، فى اصطناع التشبيه وتأليف الصورة ، كأنما أحصر فى البادية فلزمها ، أو كأنما غلب عليه حبها فقنع بمادتها فى فنه ، لا يعدل عنها ، ولا يحاول أن يجاب إليها من بعيد .

ويحرص ما وسعه الحرص أن تكون صوره عاملة متحركة . يتمثل فيها مدى المعاناة والانطلاق ، فتسمعه يقول مثلا : ينزو لوقعتها طمور الأخيل ، ويقول : يهوى مخارمها هوى الأجدل . وهما بلا جدال أقوى تصويراً وأبين حركة من مثل ، ينزو كالأخيل ، أو يهوى كالأجدل .

وإذا كان الوضع الذى يريد عرض الصورة عليه من أوضاع السكون والاستقرار ، لم يفته آخر العرض أن يجمل مفصله ، ويوجز مبسوطه فى لمسة يسيرة أو إيماءة سريعة ، لكنها جياشة بالحركة والمطاوعة ؛ فإذا هى تعلق بالذهن وتقر فيه على صورتها تلك ، كأنما النتيجة تمهد لها المقدمات ، أو الغاية تمتد إليها الأسباب ، قال :

ما إن يمس الأرض إلا منكب   منه ، وحرف الساق ، طى المحمل

وأبو كبير إذ يقول :

ممن حملن به وهن عواقد حُبُكَ النطاق فشب غير مهبَّل

ثم يقول :

حملت به فى ليلة مزءودة كرها وعَقد نطاقها لم يُحلل

لا يزيد على أن يضيف إلى ما فى البيت الأول أن الأم حين أريدت على الولد كانت مُعرِضة كارهة، ومهما يكن لهذه الصفة من مقام فى إيضاح الحقيقة وإكمال المعنى فهى شىء يسير ، لا أراه يستحق أن يتورط فى التكرار أومايشبه التكرار .

حملة تأديب

كان لنجدة بن عامر الحروري جيش عتيد ، يقوم على إمرته رجل يقال له : أبو عمرو ، فكان يغير به على القبائل فيصيب من مالها ومتاعها كل مايقدر عليه ، حتى ذاع خبره ، وخافه الناس : أغار على أسد وطيء ، ومر ببني معن فغنم منهم ماغنم ، ثم مضى لوجهه ظافرا مهيبا ينشر الجزع والهول .

وخلى بني معن من خلفه في دهش وحيرة ، لايدرون مايفعلون ، ولا كيف يبدئون ويعيدون ، حتى إذا انجلت عنهم الغمرة ، وزايلهم هول المفاجأة رجعوا إلى أنفسهم ، يتدبرون الأمر ، ويجيلون الرأي ، وبدت لهم الحقيقة مسفرة غير ذات خفاء : أن المنية خير من الدنية ، وأن العدو قد أهان كرامتهم واستباح حماهم ، ولا سبيل إلى القرار على ذلك أو الإغضاء عنه ، فكلاهما هوان ليس بعده هوان .

فجاشت قلوبهم ، وثارت حميتهم ، وأجمعوا على الخروج في أثر العدو لايتريثون في طلبه ، ولا يرجعون عنه حتى يدركوه ؛ فيثأروا لكرامتهم المهانة ، وحماهم المستباح .

وبصر بهم أبو عمرو ، فأدرك معنى طلبهم له ، وتبين موقفه منهم وموقفهم منه : أدرك أن القوم قد التأم شملهم ، وصدق عزمهم ، وهانت الحياة في أعينهم . وإلا فما خروجهم إليه بعد ما فصل منهم ، وأصبح منهم بعيدا . وتبين أنه أصبح مدافعاً ، وكان قبل مهاجما . وللهجوم سورة ليست للدفاع ، ولا سيما هجوم الحنيظ الغاضب لكرامته وحماه ، وسيكون قتاله عن تعب وفتور ، وقتالهم عن راحة وجمام .

فأقبل على أصحابه يقول لهم : إن بني معن قد أقبلوا ، وايم الله إن صدقوكم القتال إنهم لخلقاء أن يظهروا عليكم .

ولما تراءى الجمعان أخرج بنو معن كتابا كان معهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبلوا القبلة يستمدون العون ، ويسألون النصر ، فسكنت قلوبهم، وقوى يقينهم ، وحملوا على أعدائهم فهزموهم وقتلوا منهم كثيرا .

وما كان لهذا اليوم الأغر من أيام بني معن أن يمضي كما تمضي الأيام التي لاشأن لها ولا ذكر ، فيعرض عنه الشعر لايخلده ، ولايؤتيه حقه من التنويه والتمجيد . فهذا إياس[1] بن مالك المعنيّ يقص علينا نبأه ، ويذكر الأحداث التي وقعت فيه فيقول :

سَمَوْنا إلى جيش الحروري بعد ما ... تَنَاذره أعرابهم والمهاجر[2]

بجمع تظل الأُكْم ساجدة له ... وأعلام سلمى والهضاب النوادر[3]

فلما ادّركناهم وقد قَلّصت بهم ... إلى الحي خُوص كالحَنيّ ضوامر[4]

أنخنا إليهم مثلهن وزادُنا ... جياد السيوف والرماح الخواطر[5]

---

(١) هو إياس بن مالك بن عبد الله بن خيبري المعنى الطائى ، من شعراء صدر الإسلام

(٢) الحروري : نسبة إلى حروراء ، قرية قريبة من الكوفة ، خرج إليها الخوارج بعد ماينسوا من رجوع على رضى الله عنه إلى رأيهم والإقرار على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ، فسموا بالحرورية نسبة إلى هذه القرية ، وسموا كذلك بالمحكمة ، أى الذين شعارهم : لا حكم إلا لله . تناذره : تحاماه ، فأنذر بعضهم بعضا به . أعرابهم والمهاجر : يريد أهل البوادى والأمصار .

(٣) الأكم ، جمع أكمة ، وهى الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، وهو غليظ لايبلغ أن يكون حجرا . سلمى : أحد جبلى طيىء ، والآخر أجأ . وجعل لسلمى أعلاما لامتداده واتصال جبال به . الهضاب : جمع هضبة ، وهى ما انبسط على الأرض من الجبال . النوادر : الظاهرة المتميزة ، ومنه نوادر الكلام .

(٤) قلصت : استمرت فى مضيها . خوص : غائرات العيون ، خوص كفرح ، فهو أخوص وهى خوصاء . الحنى : جمع حنية كغنية ، وهى القوس

(٥) أنخنا إليهم : أنخنا عندهم ، وكان من عادتهم فى الخروج أن يركبوا الإبل ويقودوا الخيل ، إبقاء عليها لوقت الغارة وحين الحاجة . الخواطر : المهتزة لينا .

كلا ثقلينا طامع بغنيمة ... وقد قدّر الرحمن ماهو قادر (١)
فلم أر يوما كان أكثر سالبا ... ومستلَبا سرباله لا يُناكر (٢)
وأكثرَ منا يافعا يبتغى العلا ... يضارب قِرنا دارعا وهْو حاسر (٣)
فما كلّت الأيدى ولا انأطر القنا ... ولا عثرت منا الجدود العواثر (٤)

ويعرض الشاعر أحداث هذا اليوم فى حماسيته على ترتيب حدوثها فى الواقع ، فيعلن إلى الدنيا خروج قومه فى طلب عدوهم بعد ما أصبح شيئا مخوفا ، ويصف الجيش الذى أعدوه له ، والحال التى كانوا عليها حين أدركوه ، وشعور الجمعين قبل أن يتزاحفا للقتال ؟ ثم يفخر بقومه وبالنصر الذى أحرزوه ، ويحمد لشبابهم طموحه وشجاعته ، ولسلاحهم قوته ومرونته ، ولجدهم إقباله وسعادته .

وهى كما ترون خواطر متساوقة متصلة ، يسلمك أولها إلى تاليه ، ويمضى بك ثانيها إلى ثالثه وهكذا ، حتى تفرغ منها ، فلا تحس مفارقة ولا انقطاعا .

ولهذا جاءت الأبيات ملتحمة متماسكة ، لا يمكن الفصل بينها ، ولا إسقاط شىء منها ، ولا تقديم بعضها على بعض دون خلل ظاهر ، أو اضطراب غير يسير .

---

(١) كلا ثقلينا : كلا جمعينا . قدر الرحمن إلخ : قدر الله ما قدر من النصر والهزيمة . وسيكون ما قدر على ما قدر لا راد لأمره .

(٢) استلبه الشىء : سلبه إياه . السربال : الدرع ، أو القميص ، أو كل ما يلبس . لا يناكر : لا يدافع ولا يمانع . وفى البيت حذف والأصل . فلم أر يوما كان أكثر سالبا موغلا فى سلبه : ومسلوبا مستسلما لسالبه من هذا اليوم .

(٣) اليافع : الشاب المتناهى الشباب ، والفعل يفع وأيفع ، ولا يقال من أيفع موفع . حاسر : لا درع له ، ولا جنة . ولا مغفر (زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع به المتسلح) : وقد يمدح المحارب بلبس الدرع ، فيراد به الحزم والتحرز ، وقد يمدح بضده فيراد به الإقدام والجرأة .

(٤) انأطر الرمح . انعطف وأعوج ، وأطره من باب ضرب ونصر . عطفه ؛ ومنه إطار الصورة ونحوها . ولا عثرت منا الخ . سعدت جدودنا وتعست جدود غيرنا .

كما يمكن فى بعض الآثار :

فأول البيت الثانى (بجيش تظل ...) ، وهى تتعلق بأول البيت الأول (سمونا ...). وأول البيت الرابع (أنخنا إليهم..) ، وهو جواب (فلما ادركناهم ...) فى أول البيت الثالث .

والأبيات الخمسة الباقية تبدأ ثلاثة منها بفاء التفريع ، وهى : فلما ادركناهم ... فلم أر يوما ... ، فما كانت الأيدى ... ، ويبدأ واحد بواو المشاركة ، وهو : وأكثر منا يافعا ... ، ويقع البيت الأخير فى هذه العدة بموقع التكملة مما قبله ، لبيان حال الجيشين قبيل القتال ، وهو : كلا ثقلينا طامع ...

ويصطنع الشاعر فى حماسيته هذه كلمات معبرة ، تدل فى المواطن التى جلبت إليها على كثير إلى جانب دلالتها على معانيها الأصيلة :

فكلمة (سمونا) فى مستهل البيت الأول تدل على أن القوم فى نفرتهم إلى العدو ، قد تكلفوا عظيما من الأمر ، لايتكلفه إلا طامح أو مخاطر ، فما كانوا له ندا فيجروا فى ميدانه ، أو يتطاولوا إلى مكانه .

وكلمة (تناذره) فى البيت نفسه تدل على أن جيش الحرورى قد تفاقم شره وعظم خطب الناس منه ، حتى صار لهم كالوباء الجارف أو الخطر الشامل لا يبقى ولا يذر ، فالناس أحق أن يتحاموه ويتناذروه .

وكلمة (تظل) فى البيت الثانى تتمم مبالغة الشاعر فى وصف الجيش ، فهى تعنى أنه كان من كثرة العدد وثقل العتاد بحيث إذا مر بالآكام والجبال جعلها دكاء خاشعة ، لا تنهض لها من بعده ناهضة ، وإن فارقها وبعد عنها .

وكلمة (ادّركناهم) فى البيت الثالث تدل على أنهم اشتدوا فى أثر العدو ، لا يألونه طلبا ولا كدا ، فأدركوه ، ولكن بعد ما بذلوا من جهد ، واحتملوا من مشقة وعناء .

ونلاحظ أن الشاعر قد غلا فى وصف جيشه بشدة الوطأة غلوا كبيرا ، فلو أن عتاده كان من الدبابات الثقال ، والمدافع الضخام ، والجرارات الجاذبة ، والسيارات المثقلة ، والمتفجرات الناسفة ، مافعل بالجبال والآكام أكثر مما فعل جيشه ، وإن كانت ركائبه من الإبل والخيل ، وسلاحه من السيف والرمح وما لا يبعد منهما كثيراً . .

وشاعر آخر من معن يقال له عبد الرحمن[1] المعنى ، يذكر هذا اليوم أيضا فيما يبدو فيقول :

قد قارعت معن قراعا صلبا
قراع قوم يحسنون الضربا
ترى مع الرَّوع الغلام الشَّطبا[2]
إذا أحس وجعاً أو كَرْبا[3]
دنا فما يزداد إلا قربا
تمرُّس الجرباءِ لاقت جُربا[4]

والراجز المعنى يقصر حماسيته كما ترون على القاتلين من قومه فى ذلك اليوم ، فيصفهم فيها بتمام القامة وخفة الأجسام ، وبإحسان الضرب والإقدام عليه . وهى كما تعلمون صورة واحدة من الصور التى عرضها المعنى الآخر فى حماسيته آنفاً .

---

(١) فى التبريزى ، قال أبو هلال : هذا الشاعر يعرف بمرقس ، بفتح الميم والقاف والسين غير معجمة ، أحد بنى معن بن عتود . . .

(٢) مع الروع : يكون معه ، لايحجم عنه . الشطب : التام القامة ، القليل اللحم .

(٣) إذا أحس ، متعلق بدنا .

(٤) التمرس : التحكك . والمعنى كما يقول المرزوقى : فيحتك بالأبطال فى المواقف احتكاك الإبل الجربى فى المعاطن .

وقد آثر الراجز أن يحدث فيها عن قومه ، ويسكت عن نصرهم على العدو ونكايتهم فيه ، كأن رأيه فى الطلب أن يعد المرء لحاجته كفاءها من العدة ، ثم يحاول مع ذلك أن يبلغ مأمله منها ما وسعته المحاولة ، ولا عليه أن تكون العاقبة ما تكون ، فإن تكن على مايشتهى فذاك ، وإلا فقد خلاه الذم وانفسح له العذر ، فليس أمرها بيده ، ولكن بيد الله وحده يؤتيها من يشاء على مايشاء ، كما يقول الآخر :

وعلىّ أن أسعى وليـ ـس علىّ إدراك النجاح

أما صاحبه فقد حدث عن قومه وعن بلائهم فى ذلك اليوم إذ يقول :

فلم أر يوماً كان أكثر سالباً ومستلَباً سرباله لا يناكر

ولا أكثر منا يافعاً يبتغى العلا يضارب قِرنا دارعا وهو حاسر

كأنه يرى المرء مسئولا عن عاقبة أمره كما هو مسئول عن أخذ الأهبة له ؛ فلكل شىء مقدمته الممهدة له ، وسببه الموصل إليه . وما يكون بعض الأحيان من تخلف المقدمة ، وانقطاع السبب ، فمرده إلى المرء نفسه ، لتقصير فى عمل أو غفلة عن وسيلة .

وأيا ما يكن الأمر فقد أحسن الراجز تصوير قومه فى قتال عدوهم حين يقول :

تمرس الجرباء لاقت جُربا

فهى صورة منصفة ، فيها مدح لقومه ولعدوه بحب القتال والكفاية فيه ، وهى مع ذلك حية ناطقة ، تعبر عن الإحساس الخفى كما تعبر عن الحركة البادية ، فالجرب يضرى الجربى بالتمرس ويلح عليها فيه ، حتى يهيجها ويستخرج غاية ما عندها من الخفة والقوة على الحركة والاضطراب ؛ لأنها تجد فيه راحة من عناء ، وشفاء من داء ، فإذا هى فى سورة مائجة وحركة دائبة ، من الإقبال والإدبار ، والارتفاع والانخفاض . وما أعرف شيئاً أصدق ولا أشبه بقراع الأبطال فى الميدان من هذه الحركة تأتيها الإبل فى الأعطان .

وبعد ، فكلا الشاعرين يتناول الموضوع على ما قدر له وما يتوقع أن يكون منه ، لا يشتد فى طلب الفكرة ، ولا يتعمق فى الغوص عليها ، ولا يتكلف الافتتان فيها ولا التوليد منها . وما كان له أن يفعل ذلك أو يأخذ سبيلا إليه ؛ لأن البيئة يومئذ كانت أيسر من أن تُعدله أو تعين عليه ، فإذا الحماسيتان فى جملتهما خواطر سمحة دانية ، فاضت بها الفطرة البيضاء ، وزكاها الطبع الخصيب .

وهذه مقطوعة لأبى الطيب فى مثل موضوع هاتين الحماسيتين ، نعرضها لنعلم ما صنع المتنبى الموضوع ، وما مدى الفرق بين فن البداوة والفطرة ، وفن الحضارة والصنعة ؟ .

قال المتنبى يذكر خروج سيف الدولة فى طلب بنى كلاب وظفره بهم :

بغَيرك راعيا عبث الذئاب وغيرَك صارما ثلَم الضراب
وتملك أنفُس الثقلين طرّاً فكيف تحوز أنفسَها كلاب ؟
وما تركوك معصية ولكن يُعاف الورد والموت الشراب
طلبتهمُ على الأمواه حتى تخوّف أن تفتشه السحاب
فبتّ لياليا لا نوم فيها تخُب بك المسوّمة العِراب (١)
يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العُقاب
وتسأل عنهم الفلوات حتى أجابك بعضها وهم الجواب

ثم قال :

إذا ما سِرت فى آثار قوم تخاذلت الجماجم والرقاب

---

(١) تخب : تعدو . المسومة : وصف من سوم الخيل فى الحرب ، بمعنى جعل لها سومة (بالضم) ، أى علامة . العراب : التى ليس فيها عرق هجنة .

وقال :

ولو غيرُ الأمير غزا كلاباً ثنـاه عن شموسهم ضَباب
ولاقى دون ثايهم طعانا يلاقى عنده الذئبَ الغراب(١)
وخيلا تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السراب(٢)
ولكن ربُّهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب
ولا ليل أجنّ ولا نهار ولا خيل حملن ولا ركاب
رميتهم ببحر من حديد له فى البر خلفهم عُباب
فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبُسطهم تراب
ومَن فى كفه منهم قناة كمَن فى كفه منهم خضاب

فإن تكن الخماسيتان على ما رأيتم آنفاً تلتق فيهما الفطرة الخالصة ، والطبيعة المواتية — فهاهنا تلتقى الصنعة الحاذقة المتفننة ، والطبيعة المهذبة المتأنقة ، والقريحة الثاقبة المطلوب ، تحلق صعداً ، أو تتعمق غوصاً فى طلب الفكرة النادرة أو الحقيقة البارعة ، فإذا ظفرت بها أكبت عليها ، تفلسفها ، أو تفتنّ فيها ، أو تفرع عليها ، ثم تعرضها فى عبارة متينة موجزة ، فترتاح لها النفس ، وتعجب بما جمعت من براعة التخييل ، ودقة التفكير ، وإصابة المعنى ، وإرسال الحكمة ، وجمال الفن .

اقرءوا ثانية قوله :

بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب

وانظروا كيف جمع فى الشطر الأول بين نظيرين يلائمان الراعى ، وهما العبث والذئاب ، وجمع فى الشطر الآخر بين نظيرين يلائمان الصارم ، وهما الثلم والضراب ،

(١) الثاى : حجارة تجعل حول البيت يأوى إليها الراعى ليلا ، جمع ثاية
(٢) الموامى ، جمع موماة ، وهى المفازة .

وكيف ناسب في الشطرين بين راعياً وصارماً ، وبين عبث وثلم ، وبين الذئاب والضراب ، دون أن يبدو في كل ذلك أثارة من تكلف أو جهد .

ثم اقرءوا أيضاً قوله :

وتملك أنفُس الثقلين طـــــرا ... فكيف تحوز أنفسها كلاب ؟

وانظروا كيف وفق في هذا التشبيه البديع ، إذ جعل من الورد الكريه نفوح منه رائحة الموت ، فيعافه الناس ويفرون منه — صفة محمودة ، وشفاعة مسموعة .

ثم اقرءوا هذه الحكمة الصادقة : «يعاف الورد والموت الشراب» ، وانظروا كيف أرسلها في عبارة سائغة وجيزة ، فجرت على الألسنة مجرى الأمثال ؟

ثم اقرءوا :

طلبتهم على الأمـواه حتى ... تخوّف أن تفتشه السحاب

وانظروا كيف وثب بنا هذه الوثبة الهائلة من مياه العيون في جنبات الصحراء ، إلى مياه السحاب في أعنان السماء ، فجمع بين النوعين على الألفة والوفق ، وصنع منهما معاً هذا المعنى الهائل العجيب ، وهيهات أن يجتمع مثلهما على هذه الصورة لغير ذي موهبة عالية ، وقدرة بالغة على التصنيع والإبداع .

ثم اقرءوا :

يهـز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العُقاب

وانظروا كيف يصور صاحبه وقد خرج بجيشه في طلب العدو ، لقد رآه في قلب الجيش والجنود عن يمينه وشماله ، ورآه يمضي فيمضي الجناحان معه في قوة وتماسك وانقياد ؛ فصوره للناس عقابا واجدة مخصبة ، آتت حتى بدنها عليها ، وبقي أن تؤتى حق نفسها كذلك ؛ فجعلت تنفض جناحيها استمتاعاً بفضل القوة واستجابة لداعية المرح والنشاط ، وهي صورة محكمة تحسن الحكاية والتخييل .

ثم اقرءوا قوله :

وتسأل عنهم الفلوات حتى أجابك بعضها وهم الجوات

وانظروا كيف أجرى طلبه إياهم ، وتنقله فى أثرهم مجرى المساءلة والمجاوبة تدوران بينه وبين الفلوات ، وكيف جعل عثوره عليهم ولحاقه بهم فى واحدة منها بمثابة الجواب ألقت به إليه .

ثم اقرءوا أخيراً قوله :

إذا ما مرت فى آثار قوم تخاذلت الجماجم والرقاب

وانظروا كيف يصور تخاذل الأعداء أمام بطش صاحبه وشدة هيبته ، لقد آثر أن يصوره فيما بين الجماجم والرقاب لا يعدل عنه ؛ لأن تماسكها أوجب للحياة على كل حال ، حتى فى أيسر صورها وأوهن أسبابها ، فكيف به حين المدافعة والجلاد ؟ أى حين يجدى تعاونهما على المرء ما لا يجدى عليه فى موقف سواه .

فإذا رمت الهيبة فيه فأصابه التخاذل والانحلال فقد بلغت المحنة غايتها ، واستحال المرء عجماء ضالة مشدوهة لا تدرى من أمرها شيئاً ، بل استحال أداة جوفاء لا حياة فيها ولا غناء .

نعم ، اقرءوا هذه الأبيات وانظروا فيها بيتاً بيتاً ، ثم اقرءوا إن شئتم بقية الأبيات وانظروا فيها كذلك ؛ فسترون حيثما كنتم فرق ما بين الحضارة والبداوة ، ومدى ما بين السطح والغور فى الأدب والافتنان فيه ، وستجدون هنا وهناك جمالا متميزاً وفناً متنوعاً ، يختلف فى النمط والأسلوب ، ويختلف فى العرض والتلوين ، وكل مع ذلك واصل إلى القلب ، فآخذ به ، ومؤثر فيه .

فهرس الكتاب

الموضوعات وصفحاتها

الموضوعات وصفحاتها